RAR-310

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

﴿فهرست الكتاب وهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين بابا﴾

صحيفة

ترجمة المؤلف

٠٣ مقدمة الكتاب

٩ الباب الاول فى معرفة الانسان نفسه

١٥ » الثانى فى اجناس الموجودات وموضع الانسان منها

١٧ » الثالث فى العناصر التي منها أوجد الانسان

٢٠ » الرابع فى قوى الاشياء التى جمعت فى الانسان

٢٢ » الخامس فى تكون الانسان شيئا فشيئا حتى يصير انسانا كاملا

٢٦ » السادس فى ظهور الانسان فى شعار الموجودات وتخصصه بقوة شىء فشىء منها

٢٨ » السابع فى ماهية الانسان

٣٠ » الثامن فى كون الانسان مستصلحا للدارين

٣١ » التاسع فى تمثيل ذات الانسان وتصويرة

٣٨ » العاشر فى كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد

صحيفة

ماعداه لاجله
٤٠ الباب الحادي عشر فى الغرض الذى من اجله أوجد الانسان ومنازلهم :
٤٦ » الثاني عشر فى تفاوت الناس واختلافهم
٤٨ » الثالث عشر فى سبب تفاوت الناس
٥٢ » الرابع عشر فى بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية
٥٤ » الخامس عشر فى هداية الاشياء الى مصالحها
٥٧ » السادس عشر في سعادة الانسان ونزوعه اليها
٦٣ » السابع عشر فى حال الانسان في دنياه ومايحتاج ان يتزود منها
٦٧ » الثامن عشر فى تظاهر العقل والشرع وافتقار احدهما الى الآخر
٧٠ » التاسع عشر فى فضيلة الشرع
٧٣ » العشرون فى بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بانسان
٧٧ » الـ ٢١ فى مايتعلق به الشرع من الافعال
٧٩ » الـ ٢٢ في تحقيق العبادة

صحيفة

٨٠ الباب الثالث والعشرون في انواع العبادة من العلم والعمل
٨٥ » الـ ٢٤ في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
٨٧ » الـ ٢٥ في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن ازالتها الا بالشرع
٩٠ » الـ ٢٦ في القوى التي تجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها
٩٢ » الـ ٢٧ في كون الانسان مفطورا على اصلاح النفس
٩٤ » الـ ٢٨ في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
٩٥ » الـ ٢٩ في احوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها
٩٨ » الـ ٣٠ في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
١٠٣ » الـ ٣١ في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
١١٠ » الـ ٣٢ في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
١١٥ » الـ ٣٣ في فضيلة الانسان اذا شرف على الملائكة

ترجمة المؤلف

قال فى كشف الظنون تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للامام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهانى المتوفى فى رأس المائة الخامسة مختصر أوله الحمد لله الذى ارسل بالنبوة عبده رتبه على ثلاثة وثلاثين بابا وفصل فيه النشأة الاولى والنشأة الآخرى

وقال عند ذكر كتاب مفردات الفاظ القرآن العزيز له قال السيوطى في طبقاته كان فى أوائل المائة الخامسة ونقل عن خط الزركشى ما نصه ذكر الامام فخر الدين الرازي فى (تأسيس التقديس فى الاصول) ان الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى اه

وقال عند (ذكر الذريعة الى مكارم الشريعة) الذى هو كالمقدمة لكتابنا هذا على ما يظهر من اسلوب الكتابين قيل ان الامام حجة الاسلام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائما ويستحسنه لنفاسته

وقال عند ذكر تفسيره هو تفسير معتبر فى مجلد أورد فى أوله مقدمات نافعة في التفسير وطرزه (اسلوبه) انه أورد جملا من الآيات ثم فسرها تفسيرا مشبعا وهو أحد ما آخذ انوار التنزيل للبيضاوى غير ان بعضهم جعل مفردات الراغب احد ما آخذ القاضى البيضاوى في تفسيره ولا تنافي بين القولين وبالجملة فالامام الراغب ممن اجمعت على فضله العلماء الاعلام على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم تغمده الله بالرضوان واسكنه فراديس الجنان ووفق ارباب الهمم العلية لنشر مؤلفاته والاستضاءة بنور مشكاته

CA
297.23
R142kA
1905

كتاب
تفصيل النشأتين

﴿ و ﴾

تحصيل السعادتين

للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل
الراغب الاصفهاني المتوفى فى رأس المائة
الخامسة قدس الله روحه آمين

طبع على نسخة منقولة عن نسخة خطية قدسية ومقابلة
على نسخة أخرى كتبها لنفسه الشيخ رضى الدين
ابن أبى بكر الحلبى سنة ٩٦٣

﴿ طبع على نفقة أحمد ناجى الجمالى ومحمد أمين الخانجي وأخيه ﴾
بالمطبعة الحميدية المصرية سنة ١٣٢٣ هجريه

1905

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ارسل بالنبوّة عبده . وعلّمنا على لسانه حمده . ورغّبنا فيما عنده . ونسأله ان يُصلى على نبيه محمد وعلى آله وأن يهدينا بأوضح دليل . الى أنجح سبيل . وبأقوى حجة . الى أوضح محجة

قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضّل الراغب . هذه رسالة فى تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

أما النشأتان فاحداهما المذكورة فى قوله تعالي « ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكّرون » والثانية المذكورة فى قوله تعالى « ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير »

وأما السعادتان فاحداهما المذكورة فى قوله تعالى « اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم » والثانية المذكورة فى قوله تعالى « وأما الذين سعدوا ففي الجنة »

وقد عملتُ ذلك للاستاذ الكريم أيده الله لما رأيته معنيًا

باكتساب الانسانية الموصلة الى السعادتين أعانه الله على استفادتها حتى يصير حاوياً لنوعها ومحامياً على معناها ومراعياً لخصائصها فقد كاد أو قد كان قولنا الانسان لفظا مطلقاً على معنى غير موجود واسماً لحيوان غير معهود كعنقاء مغرب ونحو ذلك من الاسماء التى لا معانى لها كما قال تعالى فى صفة الاصنام المسماة آلهة «ان هى الاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» وقال جل جلاله «ما تعبدون من دونه الاَّ أسماء سميتموها» فجعلها أسماء بلا مسمى ولم أعن بالانسان كلّ حيوان منتصب القامة عريض الظفر أماس البشرة ضاحك الوجه ممن ينطقون ولكن عن الهوى . ويتعلمون ولكن مايضرهم ولا ينفعهم . ويعلمون ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . ويكتبون الكتاب بأيديهم ولكن يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت . ويعبدون ولكن من دون الله مايضرهم ولا ينفعهم . ويبيّتون ولكن مالا يرضى من القول . ويأتون الصلاة ولكن كسالى ولا يذكرون الله الا قليلا . ويصلون ولكنهم من المصلّين

الذين هم عن صلاتهم ساهون . ويذكرون ولكن اذا ذُكِّروا لايذكرون . ويدعون ولكن مع الله إلهاً آخر . وينفقون ولكن لاينفقون الاّ وهم كارهون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون. ويخلقون ولكن يخلقون إفكا . فهؤلاء وان كانوا بالصورة المحسوسة ناساً فهم بالصورة المعقولة لاناس ولانسناس كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه . ياأشباه الرجال ولا رجال بل هم من الإنس المذكور في قوله تعالى « شياطينَ الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زُخرفَ القولِ غرُورا » وما أرى البحتريّ اذا اعتبر جلُّ الناس بالخُلق لا الخَلق مبعداً في قوله

لم يبق من جلّ هذا الناس باقيةٌ ينالها الوهمُ الاّ هذه الصورُ

ولا من يقول

فجلُّهمُ اذا فكّرتَ فيهم حميرٌ أو كلابٌ أو ذئاب

ولاتحسبنّ هذه الابيات أقوالا شعرية واطلاقات مجازية فان الله تعالى يقول « أم تحسبُ أن أكثرَهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا » وقد أنبأتُ في هذه الرسالة عن جملة الموجودات ومكان الانسان منها ومبدأها ومنشأها ومنتهاها

وماجُعل له من السعادة فى الدارين باكتساب الانسانيـة وكيفية التطرق اليها وابتدأتُ بالتنبيه على وجوب معرفة الانسان ذاته فمن علم أن شيئاما هو مما يجب أن يُعلم فانه وان لم يعلمه فقد يحصـل له بذلك علمٌ . فمن العلم ان تعلم أنك لاتعلم وعلم الانسان بجهله أحـد العلمين * قال ابن عباس رضى الله عنه . من لم يجد مسّ نقص الجهل فى عقله وذلّ المعصية فى قلبه ولم يستبن الخلّة فى لسانه عند كلال حدّه عن حد خصمه فليس ممن ينزع عن دنيّة ولا يرغب عن حال معجزة ولا يكترث لفصل مابين حجة وشبهة * وبقدر معرفة منفعة الشئ يحرص الانسان على طلبه ويصـبر على تحمل المشـقة فى تحصـيله ولذلك قال الله تعالى فى صفة من جهل نفع مطلوبه (وكيف تصبر على مالم تحط به خُبرا) فاعرف أيها الفاضل فضيلة الانسانية وماأعدّ من الفـلاح لمن تزكّى كما قال تعالى (قد أفلح من زكّاها) فانها هى المكارم لاقعبان [1] من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

ولا يتكادَنّكَ [2] بُعد الشقة وفعل من يروقك طاقه ورواقه

---

(١) مثنى قعب وهو القدح الضخم (٢) تكادنى الامر شـق على كتكاءدنى

فان جاوزت كسوته اليه فليس وراء عبّادان [1] قرية بل لا تراه الا عبدا لحجرٍ أومدرٍ أو بهيمة أوظعينة كمن ذمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله . تعس عبدُ الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش . فأنك فى عنفوان شبابك ولدونة أغصانك

واعلم انه ليس يحسن بذى همة قد أحسن الله اليه فى خَلقه وخُلقه وقيّض له من ربّاه فاحسن تربيته وأزاح فى معاونته بعد بلوغه علّته أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير انسانا أوبأن يكون انسانا وقد أمكنه أن يصير ملَكا أو بان يكون ملكا وقد أمكنه أن يصير ملِكًا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة بخدمته كما قال الله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وفقنا الله لذلك ولا جعلنا من الكسالى الموصوفين بقوله تعالى (لو كان عرَضا قريباً وسفرا قاصدًا لاتّبعوك ولكن بعُدَتْ عليهم الشقة) جعلنا الله واياك من المؤمنين الموصوفين بقوله تعالى (هوالذى أنزل السكينة

(١) عبادان جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة ساكبتين فى بحر فارس

فى قلوب المؤمنين) وبقوله (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه) حتى لاتغترّ بماهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا

تراجم أبواب الكتاب

وهى ثلاثة وثلاثون بابا

١ ا فى معرفة الانسان نفسه

٢ ب فى اجناس الموجودات وموضع الانسان منها

٣ ج في العناصر التى منها أوجد الانسان

٤ د فى قوة الاشياء التى جمعت فى الانسان

٥ ه فى تكوّن الانسان شيئا فشيئا حتى يصير انسانا كاملا

٦ و فى ظهور الانسان فى شعار الموجودات وتخصصه بقوة شيء فشيء منها

٧ ز فى ماهية الانسان

٨ ح فى كون الانسان مستصلحا للدارين

٩ ط فى تمثيل ذات الانسان وتصويره

١٠ ى فى كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد ماعداه لاجله

١١ يا في الغرض الذي من أجله أوجد الانسان ومنازلهم

١٢ يب في تفاوت الناس واختلافهم

١٣ يج في سبب تفاوت الناس

١٤ يد في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية

١٥ يه في هداية الاشياء الى مصالحها

١٦ يو في سعادة الانسان ونزوعه اليها

١٧ يز في حال الانسان في دنياه ومايحتاج أن يتزود منها

١٨ يح في تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما الى الآخر

١٩ يط في فضيلة الشرع

٢٠ ك في بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بانسان

٢١ كا في مايتعلق به الشرع من الافعال

٢٢ كب في تحقيق العبادة

٢٣ كج في أنواع العبادة من العلم والعمل

٢٤ كد في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها

٢٥ كه في بيان الامراض والانجاس التي لايمكن ازالتها الا بالشرع

٢٦ كو في القوى التي تجب ازالة أمراضها وأنجاسها والمعاني التي تحصل بذلك

٢٧ كز في كون الانسان مفطورا على اصلاح النفس

٢٨ كح في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة

٢٩ كط في أحوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها

٣٠ ل في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر

٣١ لا في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة

٣٢ لب في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده

٣٣ لج في فضيلة الانسان اذا شرف على الملك

الباب الاول

في معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرةً . أول ما يلزم الانسان معرفته نفسه وقالوا مرةً . أول ما يلزمه معرفة الله تعالى . وليس بين هذين القولين منافاة فانهم عنوا بالأول حيث قالوا معرفة النفس الاول

من حيث الترتيب الصناعي وعنوا (بالاول أيضا) حيث قالوا معرفة الله الاول من حيث الشرف والفضل فان معرفة الله هي أفضل المعارف . وفي معرفة النفس اطلاع على أمور كثيرة

أحدها . انه بواسطتها يتوصل الانسان الي معرفة غيرها ومن جهلها جهل كل ماعداها

والثاني . ان نفس الانسان مجمع الموجودات كما نبين بعد فمن عرفها فقد عرف الموجودات ولذلك قال الله تعالى (أولم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تنبيها على أنهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها وعرفوا بها حقيقة السموات والارضين ولما أنكروا البعث الذى هو لقاء ربهم قال الله (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)

والثالث ان من عرف نفسه عرف العالم ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والارض ولم يكن

كالكفرة الجهلة الذين أثكلهم[1] هذه المنزلة فقال فيهم (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنتُ متخذ المضلّين عضدا)

والرابع . انه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحانى وبقاءه وبمعرفة جسده العالم الجسدانى وفناءه فيعرف خسّة الفانيات وشرف الباقيات الصالحات

والخامس . ان من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيها المشار اليها بقوله صلى الله عليه وسلم . أعدى عدوّك نفسك التى بين جنبيك فيستعيذ منها . كما قال عليه الصلاة والسلام . اللهم الهمنى رشدي وأعذنى من شرّ نفسى . وقال . لاتكلني الى نفسى طرفة عين فأهلك . ومن عرف أعداءه الكامنة ومكامنها وكيفية انبعاثها أحسن أن يحترز منها وأن يجاهدها فيستحق ماوعد الله به المجاهدين فى سبيله ومن لم يعرفها فجدير أن يتراءى له عدوه الذى هو الهوى بصورة العقل فيتصوّر له الباطل بصورة الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم . الهوى شيطان بل قال هو إله يُعبَد من

(١) الثكلى المرأة التي فقدت ولدها وأثكلها الله جعلها ثكلى

دون الله . وقد روى انه قال صلى الله عليه وسلم . ما عُبد فى الارض إلهٌ أبغضُ الى الله من الهوى ثم تلا (أفرأيتَ من اتخذَ إلههُ هواهُ)

والسادس . ان من عرف نفسه عرف أن يسوسها ومن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين فى قوله تعالى (ويستخلفكم فى الارض) ومن الملوك المذكورين فى قوله تعالى (وجعلكم ملوكا)

والسابع . ان من عرفها لم يجد عيبا فى أحد الا رآه موجودًا فى ذاته اما ظاهرا منبعثاً أو كامناً فيه ككمون النار فى الحجر فلا يكون همازًا ولمازًا وعيّاباً فان كل عيب تراءى له من غيره وجده فى نفسه ومن رأى عيب نفسه فجدير أن يكون ممن دعا له النبىء صلى الله عليه وسلم بقوله . رحم الله امرءًا شغله عيبه عن عيوب غيره * ومعرفة عيب النفس صعب من حيث ان كل انسان يحب نفسه وحبه لها يعميه عن معايبها كما قال صلى الله عليه وسلم : حبك الشىء يُعمى ويُصم * والأعمى والأصم عن عيب الشىء قد يعجب به . ولا ضرر أعظم من إعجاب المرء بنفسه وقد قال بعض الحكماء

الكاذب فى نهاية البعد عن الحق والمرائى اسوأ حالاً من الكاذب لأن الكاذب يكذب بقوله فقط والمرائى يكذب بقوله وفعله . قال . وأسوأ حالاً منهما المعجب بنفسه لان الكاذب والمرائى قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لانفع فيه بوجهٍ ولأنهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لعلمهما بنفسهما . والمعجب بنفسه لجهله يظنك فى وعظك اياه ملغيا

والثامن . ان من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى فقد روى انه ما أنزل الله من كتاب الا وفيه . اعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وهذا معنى قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» الآية . وفى هذا الخبر ثلاث تأويلات . أحدها ان بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل كقولك اعرف العربية تعرف الفقه أى بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وان كان بينهما وسائط والثانى . انه اذا حصل معرفة النفس حصل بحصولها معرفة الله بلا فاصل كقولك بطلوع الشمس يحصل الضوء فيكون الضوء مقترناً بطلوعها غير متأخر عنها بزمان والثالث . ان معرفة الله تعالى ليست تثبت الا أن تُعرَف النفس لانك اذا عرفتها على الحقيقة فقد

عرفت العالم فاذا عرفت العالم عرفت انه محدَث وان لابد له من محدِث لايشبه المحدَث بوجه وذلك هو غاية معرفة الله تعالى . قالوا وعلى هذا دل معنى قول أمير المؤمنين كرّم الله وجهه . ان العقل لاقامة رسم العبودية لالإدراك الربوبية ثم أنشأ يقول

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار فى القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدَث النسم

وقال أيضاً

العجز عن درَك الادراك ادراك والبحث عن سر ذات السر اشراك
وفى سرائر همّات الورى همم عن ذا الذى عجزت جنٌ وأملاك
يهدى اليه الذي منه اليه هدى مستدركاً وولىٌ الله مدراك

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه . يامن غاية معرفته القصورُ عن معرفته . وقال الله تعالى «نسوا الله فأنساهم أنفسهم» تنبيها على انهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله فلما جهلوه دلّ جهلهم اياه على جهلهم اياها

الباب الثانى

(في ذكر أجناس الموجودات وموضع الانسان منها)

اعلم ان الله تعالى هو الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود وكلُّ موجود فمنه وبه تعالي وجوده والموجودات ضربان المعقولات العلوية والمحسوسات السفلية وايجاده تعالى للمعقولات العلوية قبل ايجاده للمحسوسات السفلية كما روي انه أول ماخلق الله تعالى القلم ثم اللوح وقال أجر بما هو كائن الى يوم القيامة وروى انه أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال بعزتى وجلالى ماخلقتُ خلقاً أكرمَ علىَّ منك بك آخذ وبك أعطى ولك الثواب وعليك العقاب * وليس المراد بالعقل ههنا العقول البشرية بل الاشارة به الى جوهر شريف عنه تنبعث العقول البشرية وقال قوم العقل ههنا عبارة عن القلم المذكور فى الخبر الآخر والله أعلم

ثم أوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وايجاد هذه الاشياء على سبيل الابداع والابداع هو ايجاد الشيء لا عن شيء موجود من قبل ثم خلق الاركان الاربعة

والجمادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة الانسانية كما دل عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله خلق الله تعالى يوم الاحد كذا ويوم الاثنين كذا الى أن قال وخلق الانسان يوم الجمعة آخر النهار والخلق في أكثر الاحوال يقال في ايجاد الشيء من الشيء قبله كخلق الانسان من التراب ويقتضي تركيبا ولذلك قال الله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) والى الاشياء المركبة أشار بقوله تعالى (أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) واعلم ان كل شيء من المبدعات فتام لا نقص فيه ولو كان فيه نقص لدل ذلك على نقصان مبدعه وصانعه فأما المخلوق الذي هو مركب من شيء فقد يحتمل أن يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضا من جهة ما تركب منه لا من جهة مركبه وفاعله فلهذا صارت المبدعات من الاشياء العلوية معراة عن اعتراض الفساد فيها حالا فحالا بل تبقى على حالها الى أن يشاء الله تعالى أن يرفع العالم

والانسان انسانان أحدهما آدم الذي هو أبو البشر ويجري هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه انشيء غيره والباري تعالى قد تولى بنفسه ايجاده وتربيته وتعليمه كما نبه عليه بقوله تعالى

(مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي) وقوله تعالي (وعلّم آدم الاسماء كلّها) والثانى بنوه وموجدهم ايضا الباري تعالى ولكن جعل انشاءهم وتربيتهم وتعليمهم جسمانية وروحانية فالجسمانى كالأبوين والروحانى كالملائكة المدبّرات والمقسّمات الذين يتولون انشاءه وتربيته كما روى فى الخبر الولد يكون اربعين يوما نطفةً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ثم يبعث الله ملكاً فينفخ فيه الروح الى غير ذلك من الاخبار . ولكون الابوين سببا فى وجود الولد عظّم الله تعالى حقهما والزم بعد شكره شكرهما فقال (اشكر لى ولوالديك) ويسمى الولد ابنا وهو مشتق من بنيت البنية تنبيها على انه جار للاب مجرى البناء للبانى

الباب الثالث

(فى ذكر العناصر التى منها أوجد الانسان)

ذكر الله تعالى العناصر التى خلق منها آدم عليه السلام ونبّه على انه جعله انسانا فى سبع درجات . واشار الى ذلك فى مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال فى موضع خلقه من تراب اشارةً الى

المبدأ الاول . وفى آخر من طين اشارة الى الجمع بين التراب والماء . وفى آخر من حماء مسنون اشارةً الى الطين المتغير بالهواء ادني تغير . وفى آخر من طين لازب اشارة الى الطين المستقرّ على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة . وفى آخر من صلصال من حماء مسنون اشارة الى يبسه وسماع صلصلة منه وفى آخر من صلصال كالفخار . وهو الذى قد أصلح بأثر من النار فصار كالخزف وبهذه القوة النارية حصل فى الانسان أثر من الشيطنة وعلى هذا المعنى دل بقوله (خلق الانسان من صلصال كالفخّار وخلق الجانّ من مارج من نار) فنبه على ان الانسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما فى الفخار من أثر النار وان الشيطان ذاته من المارج الذى لا استقرار له . ثم نبه الله على تكميل الانسان بنفخ الروح فيه فقال (اني خالق بشرًا من طين فاذا سوّيتُه ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فهذه سبع درجات نبه عليها كما ترى . ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والاداب بقوله تعالى (وعلّم آدم الاسماء كلّها) ثم ذكر خلقَ بني آدم وعناصرهم التى أوجدها حالة بعد حالة فنبه على انه جعلهم اناسا فى سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم

جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين) وقوله تعالى (ثم انشأناه خلقاً آخر) اشار به الي ماجعل له من قوة العقل والفكر والنطق . فان قيل فلمَ قال فكسونا العظام لحماً ولم يقل فخلقنا منه لحما كما قال فى الاول . قيل اشارة منه تعالى الى لطيفة من صنعه وهو ان النطفة انتهت الى صورة العظم ثم انشأ الله اللحم انشاءً آخر لا من النطفة واجراها مجرى الكسوة التي قد يخلعها الانسان ويجدِّدُها ولذلك اذا قطع من الحيوان لحمٌ عاد ولم يكن كالعظم الذى لا يعود بعد قطعه * فان قيل كيف حكُم على جميع الناس انه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو آدم دون أولاده . قيل ان ذلك على وجهين احدهما انه لما خلق آدم من سلالة من طين فاولاده الذين منه هم أيضا منها . والثانى ان الانسان يتكوَّن من النطفة ويتربى بدم الطمث [1] وهما يتكوَّنان من الغذاء والغذاء يتكوَّن من الحيوان والحيوان من النبات والنبات من سلالة من طين فاذًا الانسان على الحقيقة من سلالة من طين وعلى هذا نبَّه الله تعالى بقوله (انا صببنا الماء

(١) الطمث الحيض

صباً ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضباً . وقوله (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) وقوله (خلقكم من تراب ثم من نطفة) فجعله الله تعالى من تراب على هذا الوجه وقال (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) وفى آخر (خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . وعني بالانسان ههنا آدم ولذلك قال ثم جعل نسله . فاقتصر ههنا على النطفة دون المبدأ الاول الذى هو التراب . وانما ذكر هذه المبادى متفرقة لحكمة اقتضت تخصيص ذكرها فى موضعها الذى ذكرها فيه وليس شرح تخصيص ذكر كل واحد من ذلك فى موضعه مما يليق بهذا الكتاب

الباب الرابع

(فى ذكر قوى الاشياء التى جمعت فى الانسان)

الانسان قد جمع فيه قوى العالم وأوجد بعد وجود الاشياء التي جمعت فيه وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) وقول النبى صلى الله عليه وسلم الذى تقدم

ذكره . وقد جمع الله تعالى فى الانسان قوي بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته . فالانسان من حيث انه بوساطة العالم حصل ومن اركانه وقواه أوجد هو العالم . ومن حيث انه صغر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من الكتاب هو الذي قلل لفظه وأستوفى معناه . والانسان هكذا هو اذا اعتبر بالعالم ومن حيث انه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض والدهن من السمسم فما من شيء الا والانسان يشبهه من وجه فانه كالاركان من حيث مافيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث ماهو جسم . وكالنبات من حيث مايتغذي ويتربى . وكالبهيمة من حيث مايحس ويتوهم ويتخيل ويلتذ ويتألم . وكالسبع من حيث مايحرض [1] ويغضب . وكالشيطان من حيث مايغوى ويضل . وكالملائكة من حيث مايعرف الله تعالى ويعبده ويخلقه . وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التى كتبها فيه على سبيل الاختصار . فقد ذكر بعض الحكماء فى بدن الانسان أربعة الاف حكمة وفى نفسه قريباً من ذلك . وكالقلم من

(١) حرض ككرم طال همه وسقمه

حيث مايثبت بكلامه صور الاشياء فى قلوب الناس كما ان القلم يثبت الحكم فى اللوح المحفوظ * ولكون الانسان من قوى مختلفة قال الله تعالى (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) أى مختلطة من قوى اشياء مختلفة . ولكون العالم والانسان متشابهين اذا اعتبرا قيل الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير ولذلك قال الله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) فاشار بالنفس الواحدة الى ذات العالم . ولما كان كل مركب من اشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الادوية والاطعمة كذلك فى نفس الانسان حصل معنى ليس فى شىء من موجودات العالم وذلك المعنى هو مايختص به من خصائصه التى بها تميز عن غيره من هيآت له كانتصاب القامة وعرض الظفر وانفعالات له كالضحك والحياء وافعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الاخلاق

الباب الخامس

فى تكوين الانسان شيئا فشيئا حتى يصير انسانا كاملا

الانسان يكون أولا جمادا اميتا قال الله تعالى (وكنتم امواتا

فأحياكم) وذلك حيث كان ترابا وطينا وصلصالا ونحوها . ثم يصير نباتا ناميا كما قال الله تعالى (والله انبتكم من الارض نباتا) وذلك حيث ما كان نطفة وعلقة ومضغة ونحوها . ثم يصير حيوانا وذلك حيث ما يتبع بطبعه بعض ما ينفعه ويحترز من بعض ما يضره . ثم يصير انسانا مختصا بالافعال الانسانية وقد نبه الله تعالى على ذلك فى مواضع نحو قوله (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) الآية . وقوله (أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) فأول ما يظهر فيه قوة النزاع الموجودة فى النبات والحيوان ثم قوة تناول الموافق ودفع المخالف ثم الحس ثم التخيل ثم التصور ثم التفكر ثم العقل فهو لم يصر انسانا الا بالفكر والعقل الذى به يميز بين الخير والشر والجميل والقبيح . والى العقل اشار الله تعالى بقوله (وصوركم فأحسن صوركم) فالانسان بفعله صار معدن العلم ومركز الحكمة ووجود العقل فيه فى ابتداء الامر بالقوة كوجود النار فى الحجر المحتاج فى ان يري [1] الى الاقتداح وكوجود النخل فى النوي المحتاجة فى ان تثمر الي غرس وسقى .

(١) من وري الزند اخرجت ناره .

وكوجود الماء تحت الارض المحتاجة فى الاستقاء منه الى حفره * ونفس الانسان واقعة بين قوتين قوة الشهوة وقوة العقل . فبقوة الشهوة يحرص على تناول اللذات البدنية البهيمية كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذات العاجلة . وبقوة العقل يحرص على تناول العلوم والافعال الجميلة والامور المحمودة العاقبة . والى هاتين القوتين اشار الله تعالى بقوله (انا هديناه السبيل إما شاكرا واما كفورا) وبقوله (وهديناه النجدين)

ولما كان من جبلة الانسان ان يتحرى مافيه اللذة وكانت اللذات على ضربين احدهما محسوس كلذة المذوقات والملوسات المشمومات والمسموعات والمبصرات وهى من توابع الشهوة الحيوانية والثانى معقول كلذة العلم وتعاطى الخير وفعل الجميل . واللذات المحسوسة اغلب علينا لكونها اقدم وجودا فينا لانها توجد فى الانسان قبل ان يولد وهى ضرورية فى الوقت ولذلك قال الله تعالى (يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) ولذلك يكره أكثر الناس مايأمر به العقل ويميل الى مايأمر به الهوى حتى قيل العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات .

ولذلك يحتاج الانسان ان يقاد فى بدإ امره الى مصالحه بضرب من القهر حتى قال صلي الله عليه وسلم ياعجبا لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل. فحق الانسان ان يجاهد هواه الى ان يقتحم العقبة فيتخلص حينئذ من اذاه

وللنفس نظران نظر الى فوق نحو العقل ومنه تستمد المعارف وتميز بين المحاسن والقبائح فعترف كيف تتحري المحاسن و تتجنب القبائح . ونظر الى تحت نحو الهوي وبه تنسى الحقائق وتألف الخسيسات بل القاذورات . والنفس متى كانت شريفة ادامت النظر الى فوق كما ذكرنا ولا تنظر الى مادونها الا عند الضرورة ولا تتناول اللذات البدنية الا بحسب مايرسمه العقل المستمد من الشرع أو اذا كانت دنية أكثرت الميل الى الشهوات البدنية فيحدث ذلك لها اذعانا وانقيادا للشهوات فيستعبدها الهوى كما قال الله تعالى (أفرأيتَ منَ اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم) وانما اضله بعد ان اتخذ الهه هواه وجعله عبدَ الأغراض دنيوية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدرهم الخبر ومن هذ العبودية استاذ ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال (واجنبني وبنيَّ أن نعبد الاصنام)

﴿ الباب السادس ﴾

في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصيصه بقوة شيء فشيء منها

ذات الانسان من حيث ما اجتمع فيه قوى الموجودات صار وعاء معاني العالم وطينة صوره ومعدن آثاره ومجمع حقائقه وكأنه ركب من جمادات ونباتات وبهائم وسباع وشياطين وملائكة ولذلك قد يظهر في شعار كل واحد من ذلك فيجري تارة مجرى الجمادات في الكسل وقلة التحرك والانبعاث وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو اشد قسوة) وقد يظهر في شعار النباتات الحميدة أو الذميمة فيصير اما كالاترج [1] الذي يطيب حمله ونوره [2] وعوده وورقه أو كالنخل والكرم فيما يؤتى من النفع أو كالكشوث [3] في عدم الخير أو كالحنظل في خبث المذاق وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون

(١) الاترج فاكهة معروفة الواحدة أترجة (٢) النوار الزهر (٣) الكشوث بفتح الكاف وضمها نبت يتعلق بالاغصان لا عرق له ولا ورق لا نسيم ولا ظل ولا زهر وهو يفسد الثمار ويضر الاشجار

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت (١) من فوق الارض مالها من قرار) ويظهر تارة فى شعار الحيوانات المحمودة والمذمومة فيصير اما كالنحل فى كثرة منافعه وقلة مضاره وفى حسن سياسته قال الله تعالى (وأوحي ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) أو كالطير المسمى بأبى الوفا أو كالخنزير فى الشره أو كالذئب فى العيث أو كالكلب فى الحرص أو كالنمل فى الجمع أو كالفار فى السرقة أو كالثعلب فى المراوغة أو كالقرد فى المحاكاة أو كالحمار في البلادة أو كالثور فى الفظاظة وعلى هذا النحو من المشابهات دل الله بقوله « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون » ويظفر تارة فى شعار الشياطين فيغوى ويضل ويسول بالباطل فى صورة الحق كما دل الله تعالى بقوله «شياطين الجن والانس يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » وانما يكون انسانا اذا وضع كل واحد من هذه الاشياء فى موضعه حسب مايقتضيه العقل المرتضى المستبصر بنور الشرع

(١) اجتث القطع أو انتزاع الشجر من اصله

﴿الباب السابع﴾

فى ماهية الانسان

ماهيـة كل شئ تحصل بصورته التي يتميز بها عن اغياره كصورة الصورة والسكين والسيف والمنجل ونحوها ولما كان الانسان حزئين بدن محسوس وروح معقول كما نبـه الله تمالى عليه بقوله « انى خالق بشرا من طين فاذا سوّيتهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين » كان له بحسبِ كل واحد من الجزئين صورة فصورته المحسوسة البـدنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن الشعر والضحك وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والروية والنطق قالوا فالانسان هوالحيوان الناطق ولم يعنوا بالناطق اللفظ المعبر به فقط بل عنوا به المعانى المختصة بالانسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق فقد يعبر عن جمله الشيء بأخص مافيه أو بأشرفه أو بأوله كقولك سورة الرحمن وسورة يوسف وسورة لإيلاف ونحوذلك فالانسان يقال على ضربين عام وخاص فالعام ان يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم

والخاص ان يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتا بعيدا وبحسب تحصيله يستحق الانسانية وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان فيقال فلان اكثر انسانية . وكما يقال الانسان على وجهين يقال له الحيوان الناطق على وجهين عام ويراد به من فى قوة نوعه استفادة الحق والخير كقولك الانسان هو الكاتب دون الفرس والحمار أى هو الذي فى قوته استفادة الكتابة . وخاص ويراد به من حصل الحق فاعتقده والخير فعمله كما يقال زيد هو الكاتب دون عمرو اى هو المختص بعلم الكتابة . وكذا يقال له عبد الله على وجهين عام ويراد به الحيوان المعترض لارتسام أوامر الله ارتسم أولم يرتسم وهو المشار اليه بقوله تعالى (ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا) وخاص وهو المرتسم لاوامر الله تعالى كما قال سبحانه (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكذا يقال له حى وسميع وبصير ومتكلم وعاقل كل ذلك على وجهين يقال عاما وهو لمن له الحياة الحيوانية التى بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الاصوات ولمن يدرك الالوان ولمن يفهم الكافة بما يريده ولمن له القوة التى يتبعها التكليف والثانى

يقال له خاصا وهو لمن له الحياة التى هى العلم المقصود بقول الله تعالى (لينذر من كان حيا) وله السمع الذى به يسمع حقائق المعقولات والبصيرة التى بها يدرك الاعتبارات واللسان الذى به يورد التحقيقات وهى التى نفاها عن الجهلة الكفرة فى قوله تعالى (صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون)

﴿ الباب الثامن ﴾

في كون الانسان مستصلحا للدارين

الانسان من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين وذلك ان الله تعالى قد اوجد ثلاثة أنواع من الاحياء نوعا لدار الدنيا وهي الحيوانات ونوعا للدار الآخرة وهو الملأ الاعلى ونوعا للدارين وهو الانسان فالانسان واسطة بين جوهرين وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة فجمع فيه قوي العالمين وجعله كالحيوانات فى الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارشة والمنازعة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات. وكالملائكة فى العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء ونحو ذلك من الاخلاق الشريفة ووجه الحكمة فى ذلك انه تعالى لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه

وهيأه مع ذلك لمجاورته فى جنته اقتضت الحكمة ان يجمع له القوتين فانه لو خلق كالبهيمة معرى عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجاورته ودخول جنته. ولو خلق كالملائكة معري عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى فى جوابهم «انى أعلم مالا تعلمون» فاقتضت الحكمة الالهية ان تجمع له القوتان وفى اعتبار هذه الجملة تنبيه على ان الانسان دنيوىٌ واخرويٌ وانه لم يخلق عبثا كما نبه الله عليه بقوله «أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون»

الباب التاسع

في تمثيل ذات الانسان وتصويره

قد ذكر الحكماء لذات الانسان وقواها مثالا صوروها بها فيتمثل كل مالا يدرك الا بالعقل بتصور الحس ليقرب من الفهم فقالوا ذات الانسان لما كان عالما صغيرا كما تقدم جرى مجري بلد أحكم بناؤه وشيد بنيانه وحصن صورة وخطت شوارعه وقسمت محاله وعمرت بالسكان دوره وسلكت سبله وأجريت

انهاره وفتحت اسواقه واستعملت صناعه وجعل فيه ملك مدبر وللملك وزير وصاحب بريد واصحاب أختار وخازن وترجمان وكاتب وفى البلد اخيار واشرار. فصناعها وهي القوى السبعة التى يقال لها الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والمانية والعادية والمصورة والملك العقل ومنبعه من القلب. والوزير القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ. وصاحب البريد القوة المتخيلة ومسكنها مقدم الدماغ. وأصحاب الاخبار الحواس الخمس ومسكنها الاعضاء الخمس. والخازن القوة الحافظة ومسكنها خلف الدماغ. والترجمان القوة الناطقة وآلتها اللسان. والكاتب القوة الكاتبة وآلتها اليد وسكانها الاخيار والاشرار هى القوى التى منها الاخلاق الجميلة والاخلاق القبيحة وكما ان الوالى اذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله فى الارض كما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال السلطان ظل الله فى الارض ويجب على الكافة طاعته كما قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم » كذلك متى جعل العقل سائسا وجب على سائر قوي النفس ان تطيعه. وكما ان الله تعالى جعل الناس متفاوتين كما نبه الله تعالى عليه بقوله

«ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا» كذلك جعل قوى النفس متفاوتة وجعل من حق كل واحدة ان تكون داخلة فى سلطان مافوقها متأمرة على مادونها فحق القوة الشهوانية ان تكون مؤتمرة للقوة الغضبية وحق القوة الغضبية ان تكون مؤتمرة للقوة العاقلة وحق القوة العاقلة ان تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤتمرة لمراسمه حتى تصير هذه القوي متظاهرة غير متعادية كما قال الله تعالى «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين» وكما لاينفك اشرار العالم من ان يطلبوا فى العالم الفساد ويعادوا الاخيار كما قال تعالى «وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها» وقال سبحانه «وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن» كذلك فى نفس الانسان قوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل والفكر. وكما نبه انه يجب للوالى ان يتبع الحق ولا يصغى الى الاشرار ولا يعتمدهم كما قال تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم» الآية. وقال تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء»

وقال «وأن أحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهوائهم وأحذرهم أن يفتنوك» كذلك يجب للعقل والفكر ان لا يعتمد القوى الذميمة

وكما انه يجب للوالى ان يجاهدا عداء المسلمين كما قال تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» كذلك يجب للعقل ان يعادي الهوي فان الهوى من اعداء الله بدلالة قول النبى صلى الله عليه وسلم مافى الارض معبوداً ابغض الى الله من الهوى ثم تلا أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . وكما ان من استحوذ عليه الشيطان انساه ذكر الله كذلك العقل اذا استحوذ عليه الهوى . وكما انه يجب للوالى ان يسالم اعاديه اذا لم يقو عليهم كما قال الله تعالى «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» وان لا يركن اليهم وان سالمهم كما قال الله تعالى «ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار» كذلك يجب للعقل ان يسالم الاشرار من قوى النفس اذا عجز عنها وان لا يركن اليها

وكما ان الوالى اذا احس بقوة احتاج الى ان يعدل الى نقض العهد واظهار المعاداة كما قال الله تعالى «فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» كذلك حق العقل اذا قوى على قوى النفس ان لا يداهنها.

وكما ان شياطين الانس والجن يضعف كيدهم على من تحصن بالايمان واستعاذ بالله وتقوى على من والاه كما قال تعالى «انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون» كذلك يضعف كيد الهوي عن العقل اذا تقوي بالله واستعاذ به . فحق العقل ان يستعيذ من الهوى والشره والحرص والامل وان يطهر ذاته منها ومن سائر القوى الرديئة استعاذة ابراهيم صلوات الله عليه حيث قال (رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني ان نعبد الاصنام) فالقوي الرديئة والارادات الرديئة فى ذات الانسان جارية مجرى اصنام قل ماينفك الانسان من عبادتها كما قال الله تعالى «ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» وذكروا مثلا آخر فقالوا كل انسان مع بدنه كوال فى بلد قيل له طهر بلدك من النجاسات وادب من يقبل التأديب من أهله ورض من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه . ومن عاث فيه ولا يقبل التأديب والرياضة فاحبسه أو اقتله ولكن بالحق كما قال الله تعالى «ولا تقتل النفس التى حرم الله الا بالحق» فان عجزت عن تطهير عرصته من الانجاس وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه فلا تعجز عن صيانة نفسك عن التلطخ بنجاساته وعن الاحتراس من

ان تفترسك سباعه وان يسبيك طغاته حتى اذا لم تكن غالبا لم تكن مغلوبا . فصار الناس فى ذلك بين ثلاثة اصناف صنف لم يفعل ما أمر ولم يؤد حق الايالة وتهاون فيما فوض اليه فجرح وأسر فصار عند نفسه مع كونه مجروحا مأسورا ملوما مخذولا وصنف فعل ما أمر فأدى حق الايالة فصار عند ربه مأجورا مشكورا . وصنف جد تارة وقصر تارة فجرح وجرح وغلب وغلب فهو كما قال تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم) وقال بعضهم الانسان اذا اعتبر مع قوة الغضب وقوة الشهوة فمثله مثل من بلى فى سفره بصحبة ثلاثة اضطر اليهم حتى لا يمكنه ان ينفصل منهم ويقضى سفره من دونهم كما قال الشاعر

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواله ما من صداقته بد
فيانكد الدنيا متى انت نازح عن الحر حتى لا يقاربه ضد

فواحد أمامه هوله رقيب يحفظه وعين تكلأه لكنه ملق [1] باهت مموه يلفق الباطل تلفيقا ويختلق الزور اختلاقا فيخلط الكذب بالصدق والخطأ بالصواب . والثانى عن يمينه بطش زعر [2] يحميه عن اعاديه

(١) الملق المعطى باللسان ما ليس فى القلب (٢) الزعر الشرس

لكنه كثيرا مايغويه فيهيج هائجه فلا يقمعه النصح ولا يطأطئه الرفق كأنه نار في حطب أو سيل في صبب أو قرم مغتلم [١] أو سبع ثاكل [٢] فيحتاج ان يسكنه دائما فيحتمي به ومنه فهو معه كما قيل راكب الاسد يهابه الناس وهو في نفسه اهيب . والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب لكنه ارعن [٣] ملق قذر شبق [٤] كانه خنزير أجيع فأرسل في جلة [٥] يأتيه أحيانا باطعمة خبيثة فيكرهه على تناولها فهو يحتاج ان يصابرهم حتى يقطع سفره فيبلغ أرضا مقدسة يشرق فيها النور ويشرب فيها الذئب والنعجة من حوض واحد فيأمن فيها بوائقهم ومن حيلته التي ترجى ان يسلم منهم بها ان يسلط هذا البطش الزعر على هذا الارعن الملق حتى يزبره زبرا [٦] وان يطفئ غلو هذا الزعر التائه بخلابة هذا الارعن الملق وان لا يجنح الى الباهت المتخرص حتى يأتيه موثقا من الله غليظا ثم يصدقه فيما ينهيه اليه فجعل الملق الباهت كناية عن الوهم والبطش الزعر عن الغضب

(١) القرم البعير والمغتلم الشديد الهياج (٢) الثكل فقدان الحبيب أو الولد (٣) الرعونة الحمق (٤) الشبق الشديد الغلمة والشهوة (٥) بالفتح الجلة البعرة وتطلق على العذرة (٦) الزبر الزجر والانتهار

والارعن الملق عن الشهوة وجعل الارض المقدسة عبارة عن دار السلم وذكر ان حيلته فى ان يسلم منهم ان يدفع بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر

الباب العاشر

في كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد ماعداه لاجله

المقصود من العالم وايجاده شيئا بعد شيء هو ان يوجد الانسان فالغرض من الاركان أن يحصل منها النبات ومن النبات أن تحصل الحيوانات ومن الحيوانات أن تحصل الاجسام البشرية ومن الاجسام البشرية أن يحصل منها الارواح الناطقة ومن الارواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى فى أرضه فيتوصل بايفاء حقها الى النعيم الأبدى كما دل الله تعالى عليه بقوله (انى جاعل فى الارض خليفة) وجعل تعالى الانسان سلالة العالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وجعل ماسواه كالمعونة له كما قال تعالى فى معرض الامتنان (هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا) فليس فضله بقوة الجسم فالفيل والبعير

أقوى جسما منه ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول منه عمرا ولا بشدة البطش فالاسد والنمر أشد منه بطشا ولا بحسن اللباس فالطاووس والدراج [1] أحسن منه لباسا ولا بالقوة على النكاح فالحمار والعصفور أقوى منه نكاحا ولا بكثرة الذهب والفضة فالمعادن والجبال أكثر منه ذهبا وفضة وما أحسن قول الشاعر

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان

ولما تفاضلت النفوس ودبرت أيدى الكماة عوالى المران

ولا بعنصره الموجود منه كما زعم ابليس حيث قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) بل ذلك بما خصه الله تعالى به وهو المعنى الذى ضمنه فيه والأمر الذى رشحه له وقد أشار اليه تعالى بقوله « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » وبقوله « خلقت بيدي » والملائكة لما نبههم الله تعالى لفضل آدم تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كما أمروا . وابليس لما نظر الى ظاهر آدم وبدئه وتعامى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه الله تعالى آدم والعاقبة التى جعلها له أبى واستكبر . وقد اقتدي به الكفار فى رد الانبياء حيث قالوا

(١) الدراج بالضم والتشديد ضرب من الطير ذكرا كان أو انثى

«ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم» وقالوا «مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق» وقد نبه الله تعالى على ان الاعتبار بفضلهم ليس بظاهر ابدانهم وانما ذلك لمعانى فى نفوسهم يعمي عنها الكفار فقال عز من قائل «وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون» أى لا يعرفون مافضلتهم به. فمن وفق لفضل ما أعطي ولما رشح له وأعد ثم سعى فى مثاله فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

الباب الحادي عشر

فى الغرض الذى لاجله أوجد الانسان ومنازلهم

الغرض منه ان يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه كما نبه الله تعالى بآيات فى مواضع مختلفة حسب ما اقتضت الحكمة ذكره. وذلك قوله تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» وقوله انى جاعل فى الارض خليفة. وقوله. ليستخلفنهم فى الارض. وقوله ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب. وقوله. يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارا لله. وقوله. واستعمركم فيها. وكل ذلك اشارة الى توليتهم أمورا لم يستصلح لها الا الانسان كما نبه الله تعالى عليه بقوله للملائكة

« انى أعلم مالا تعلمون » وذلك أن الله تعالى ما كان موجدا لما هو موجده وفاعلا لما هو فاعله الاعلى أربعة أوجه

الاول افعال تولاها بذاته وهى الابداع ومعنى الابداع هو ايجاد الشىء من العدم واليه الاشارة بقوله تعالى « بديع السموات والارض »

والثانى افعال استعبد فيها ملائكته وسماه قوم التكوينات وذلك اخراج الشىء من النقص الى الكمال اخراجا غير محسوس فاعله وبذلك وصفهم الله تعالى بقوله . فالمدبرات امرا وهم ثلاثة اضرب ضرب اليهم القيام بالاجرام السماوية وقد قيل هم اسرافيل وميكائيل وجبرائيل ورضوان والمحتفون بالعرش الموصوفون بقوله تعالى « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » وقوله تعالى « الذين يحملون العرش ومن حوله الآية » وضرب اليهم تدبير الاركان الهوائية كالملائكة الباعثة للرياح والمزجية للسحاب الموصوفين بقوله تعالى والمرسلات عرفا . وقوله عز وجل . والنازعات غرقا . وضرب اليهم تدبير الارض كالموصوفين بقوله تعالى « له معقبات من بين يديه

ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» وكمن وصفه النبي صلى الله عليه وسلم فى صفة الجنين انه يبعث ملكا فينفخ فيه الروح وكالحفيظ والرقيب والعتيد وكمن وصفهم الله بقوله «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين»

والثالث أفعال سخر الله تعالى لها الاركان وموجودات العالم كالاحراق والاذابة للنار والترطيب للماء وفى الجملة ما قد سخر تعالى له شيئا فشيئا من الجمادات والناميات وغير ذلك ونبه عليه بقوله تعالى «وسخر لكم الشمس والقمر» وغير ذلك من الآيات المذكورة

والرابع الصناعات والمهن المحسوسة التى استعبد الانسان فيها واستخلفه وهي الاشياء التى يحتاج صناعة اكثرها الى ستة أشياء الي عنصر تعمل منه والي مكان والى زمان والي حركة والي أعضاء والي آلة وهذا الضرب خص الانسان به ولم يستصلح له الملائكة وجعل لكل من الملك مقاما معلوما كما نبه عليه تعالى بقوله (وما منا الا له مقام معلوم) وكذلك جعل لكل نوع من الناس مقاما معلوما كما نبه عليه بقوله (قل كل يعمل على شاكلته) وقوله (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) وقول النبي صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له ولكن

عامة الملائكة لم يعصوا الله فيما أمرهم كما وصفهم تعالى بقوله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون * والناس فيما أمروا به وكلفوه بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة أضرب ضرب اخلوا بأمره وانسلخوا عما خلقوا لاجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا الطاغوت. وضرب وقفوا بغاية جهدهم حيث ما وقفوا كالموصوفين بقوله تعالى «وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى «خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» فمن رجح حسناته على سيئاته فموعود بالاحسان اليه. وعلى الانواع الثلاثة دل الله تعالى بقوله (وكنتم ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشئمة ما اصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون) وعلى هذا اقسم الله تعالى في آخر السورة فقال (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) وكثير من الناس يعصون الله ولا يأتمرون له فيمضيهم الله تعالى بغير ارادة منهم للسعي فى نصرته من حيث لا يشعرون كفرعون فى اخذ موسى وتربيته.

وكجمعه السحرة ليكون سببا فى ايمانهم . واخوة يوسف فى فعلهم ما افضى به الى ملك مصر وتمكنه مما تمكن منه ويكون مثلهم فى ذلك كما قيل

قصدت مساتى فاجتلبت مسرتى

وقد يحسن الانسان من حيث لا يدرى

وقال آخر

فعل الجميل ولم يكن من قصده فقبلته وقرنته بذنوبه

ولرب فعل جاءنى من فاعل فحمدته وذممت من يأتى به

فيكون فعله محمودا وفاعله مذموما كما قيل

رب أمر اتاك لا تحمدا فعال وتحمد الافعال

وقد أوجد الله تعالى كل ما فى العالم للانسان كما نبه عليه بقوله تعالى (جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) وقال تعالى (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض الآية) وقال عز وجل (وسخر لكم ما فى الارض) وقول تعالى (هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب

ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار) الآية واباح جميعها لهم كما نبه الله تعالى عليه بقوله (قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق) فللانسان ان ينتفع بكل ما فى العالم على وجهه اما فى غذائه أو فى دوائه أو فى ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته والالتذاذ بصورته أو رؤيته والاعتبار به وباستفادة علم منه والاقتداء بفعله فيما يستحسن منه والاجتناب عنه فيما يستقبح منه فقد نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات واطلع الخلائق عليها اما بالسنة الانبياء عليهم السلام أو بالهام الاولياء رضى الله عنهم وكما أن حق الانسان ان يعرف منافع الحيوانات فى ذواتها فينتفع بها فى المطاعم والملابس والادوية فحقه ان يعرف اخلاقها وافعالها فينتفع بها فى اجتناء ما يستحسن واجتناب ما يستقبح منها. فقد احسن من قال تعلمت من كل شىء احسن ما فيه حتى من الكلب حمايته على اهله. ومن الغراب بكوره فى حاجته وقد اشار الله تعالى الى ذلك فى وصف النحل فقال (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات الآية) فنبه على ان الانسان حقه ان يقتدى بالنحل فى مراعاته لوحى الله عز وجل

فكما انها لا تتخطى وحي الله في تحرى المصالح طبعا كذلك يجب على الانسان ان لا يتخطى وحى الله اختيارا

الباب الثانى عشر

في تفاوت الناس واختلافهم

الاشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث انها مصنوعة بالحكمة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ومختلفة من حيث ان كل نوع يختص بفائدة وكل نوع وان اختلف فما من شيء أكثر اختلافا من الناس كما قال الله تعالى (وقد خلقكم اطوارا) . وقال تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات . وقال سبحانه وتعالى انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وقال سبحانه ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . وقال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة الآية . وقال تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . وقال سبحانه ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من

رحم ربك . وعلى هذا نبه الله تعالي بقوله وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع الى قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون والحكمة المقتضية لذلك هوان الانسان لما كان غير مكنى بتفرده حتى لوان انسانا حصل وحده لامتنع أوتعذر بقاؤه ادنى مدة فان أول مايحتاج الانسان اليه مايواريه ومايغذوه (١) وليس يجد مايواريه مصنوعا ولا مايغذوه مطبوخا كما يكون لكثير من الحيوانات بل هومضطر الي اصلاحهما واصلاح ذلك يحوجه الى آلات غير مفروغ منها والانسان الواحد لا توصل له الى اعداد جميع مايحتاج اليه ليعيش العيشة الحميدة فلم يكن بد للناس من تشارك وتعاون فجعل لكل قوم صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الاخرى ليقتسموا الصناعات بينهم فيتولى كل منهم صنفا من الصناعات فيتعاطاه باهتزاز كما قال الله تعالى (فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) فاقتضت الحكمة ان تختلف جثثهم وقواهم وهممهم فيكون كل ميسر لما خلق له . وقال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) فتكون

(١) يقال غذوت الصبي باللبن من باب غذا أي ربيته ولا يقال غذيته باليا مخففا ويقال غذيته مشددا

معايشهم مقتسمة بينهم كما نبه الله عليه بالايات المتقدمة . وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك) والاختلاف الحاصل بين . فالناس اذا اعتبر اختلاف اغراضهم وهممهم فهم فى صناعاتهم فى حكم المسخرين وان كانوا فى الظاهر مختارين وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى ما يتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف طبقاتهم فقال لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا

﴿ الباب الثالث عشر ﴾

فى سبب تفاوت الناس

أسباب ذلك سبعة أشياء الاول اختلاف الامزجة وتفاوت الطينة واختلاف الخلقة كما أشير اليه فيما روي ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يوخذ من كل أرض قبضة فجاء بنوا آدم على قدر طينتها الاحمر والابيض والاسود والسهل والحزن والطيب والخبيث والى نحو هذا اشار الله تعالى بقوله (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) وقال تعالى (هو

الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء» *والثانى اختلاف أحوال الوالدين فى الصلاح والفساد وذلك ان الانسان قد يرث من أبويه آثار ماهما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما كما يرث مشابهتهما فى خلقهما ولهذا قال الله تعالى« وكان أبوهما صالحا» . وعلى نحوه روي انه قال فى التوراة انى اذا رضيت باركت وان بركتى لتبلغ البطن السابع واذا سخطت لعنت وان لعنتى لتبلغ البطن السابع تنبيها على ان الخير والشر الذى يكسبه الانسان ويتخلق به يبقى اثره موروثا الى البطن السابع * والثالث اختلاف ماتتكون منه النطفة التى يكون منها الولد ودم الطمث الذى يتربى به الولد فذلك له تأثير بحسب طيب ماتكونا منه وخبثه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم . وقال الناكح غارس فلينظر أحدكم أين يضع غرسه . وقال اياكم وخضراء الدمن قيل وماخضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء * والرابع اختلاف مايتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذى يتربى به ولتأثير الرضاع تقول العرب لمن تصفه بالفضل لله دره * والخامس اختلاف أحوالهم فى تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة فحق الولد

على الوالدين ان يؤخذ بالآداب الشرعية واخطار الحق بباله وتعويده فعل الخير كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر ويجب أن يصان عن مجالسة الارذياء فانه في حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يشكل به وان يحسن في عينه المدح والكرامة ويقبح عنده الذم والمهانة ويبغض اليه الحرص على المآكل والمشارب ويعود الاقتصاد في تناولها ومخالفة الشهوة ومجانبة ذوى السخف ويؤخذ بقلة النوم في النهار فهو يشيب ويورث الكسل ويعود التأني في أفعاله وأقواله ويمنع من مفاخرة الاقران ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعود صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع قال بعض الحكماء من سعادة الانسان ان يتفق له في صباه من يعوده تعاطى الشريعة حتى اذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعوده قويت بصيرته ونفذت في تعاطيها عزيمته * والسادس اختلاف من يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به (عن المرء لا تسأل وابصر قرينه) * والسابع اختلاف اجتهاده في تزكية نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه . والفاضل التام الفضيلة من اجتمعت له هذه الاسباب المستعدة وهو ان يكون

طيب الطينة معتدل الامزجة جاريا في اصلاب آباء صالحين ذوى أمانة واستقامة متكونا من نطفة طيبة ومن دم طمث طيب على مقتضى الشرع ومرتضعا بدر طيب ومأخوذا في صغره من قبل مربيه بالاداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الاشرار ومتخصصا بعد بلوغه بمذهب حق ومجهدا نفسه في تعرف الحق مسارعا الى الخير فمن وفق في هذه الأشياء تنجع فيه الخيرات من جميع الجهات كما قال الله تعالى « لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجهم ». ويكون جديرا ان يعد ممن وصفه الله تعالى بقوله « وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ». والرذل التام الرذيلة هو من يكون بعكس هذا في الامور التي ذكرناها. واعلم ان من طابت أحواله انتفع بكل ماسمعه وشاهده ان خيرا وان شرا ومن خبثت أحواله استضر بكل ماسمعه وشاهده وعلى ذلك دل الله تعالى بقوله (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج الا نكدا ». فالخبيث من الارض وان طاب بذره وعذب ماؤه لاينبت الا خبيثا والطيب من الارض وان كدر بذره وملح ماؤه لاينبت الا طيبا ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل

وقال فى صفة كتابه « قل هو للذين امنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى »

الباب الرابع عشر

فى بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية

اقتضت الحكمة ان تكون الشجرة النبوية صنفا مفردا ونوعا واحدا واقعا بين الانسان وبين الملك ومشاركا لكل واحد منهما على وجه فانهم كالملائكة فى اطلاعهم على ملكوت السماوات والارض وكالبشر فى أحوال المطعم والمشرب . ومثله فى كونه واقعا بين نوعين مثل المرجان فانه حجر يشبه الاشجار بتشذب اغصانه وكالنخل فانه شجر شبيه بالحيوان فى كونه محتاجا الى التلقيح وبطلانه اذا قطع رأسه . وجعل الله النبوة فى ولد ابراهيم ومن قبله فى نوح كما نبه عليه بقوله « ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب . وقال تعالى (ذرية بعضها من بعض» . فهم عليهم السلام وان كانوا من حيث الصورة كالبشر فهم من حيث الارواح كالملك قد أيدوا بقوة روحانية وخصوا بها كما

قال الله تعالى فى عيسى عليه السلام « وأيدناه بروح القدس » وقال في محمد صلى الله عليه وسلم « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » . وتخصيصهم بهذا الروح ليمكنهم ان يقبلوا من الملائكة لما بينهم من المناسبة بتلك الارواح ويلقون الى الناس لما بينهم من المناسبة البشرية لذلك قال سبحانه « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون » تنبيها على ان ليس فى قوة عامة البشر الذين لم يخصوا بذلك الروح ان يقبلوا الا من البشر . ولما عمي الكفار عن ادراك هذه المنزلة وعما للانبياء من الفضيلة أنكروا نبوة الانبياء كما قال الله تعالى « قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباءنا فأتونا بسلطان مبين » . فالانبياء صلوات الله عليهم بالاضافة الى سائر الناس كالانسان بالاضافة الى الحيوان وكالقلب بالاضافة الى سائر الجوارح وايضا فمنزلة الانبياء من أممهم بمنزلة الشمس من القمر ومنزلة علمهم من علوم أممهم بمنزلة ضوء الشمس من نور القمر كما قال الله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) . فكما ان نور القمر مقتبس من ضوء الشمس وهو قاصر عنها كذلك منزلة الامم من أنبيائهم

ومنزلة علمهم من علومهم. وكما لايحصل النور للقمر الا بوساطة الشمس كذلك لاتحصل علوم الناس وتزكية نفوسهم الا بوساطة الانبياء وعلى هذا دل الله تعالى بقوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم). فالله تبارك وتعالى يزكى الانبياء بوساطت الملك ويزكي من يشاء من الناس بوساطت الانبياء كالطابع الذى جعل له كتابة ثم بوساطته يثبت في الشموع المختلفة شكل تلك الكتابة

الباب الخامس عشر

فى هداية الاشياء الى مصالحها

كل ماأوجده الله سبحانه فانه هداه لما فيه مصلحته كما نبه عليه بقوله تعالى (اعطي كل شيء خلقه ثم هدي) . لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط كالاشياء الارضية التى اذا تركت تنحو نحو السفل وكالنار التى تنحو الى العلو . وهدايته للحيوانات الى افعال تتعاطاها بالتسخير والالهام كالنحل فيما يتعاطي من السياسة واتخاذ البيوت المسدسة ومن عمل العسل . وكالسرفة [1] فيما

(١) السرفة بالضم دويبة تتخذ بيتا من دقائق العيدان فتدخله وتموت

تبنيه من الابنية . وكالعنكبوت فى نسجه . وهدايته للملائكة بالتسخير والالهام وبيداهة العقل وماجعل لهامن العلوم الضرورية فاما الانسان فهدايته له تعالى بكل ذلك وبالفكر . وذلك انه بالتسخير بنفسه وكثير من حركاته وبالالهام هدايته طفلا للارتضاع بالثدى وطلب الغذاء والتشكى من الالام بالبكاء وبديهة العقل يعرف مبادي العلوم وبالفكر يتوصل الى استنباط المجهول بالمعلوم فهو ان خلق عاريا من المعارف التى جعلها الله تعالى للحيوانات بالالهام ومن الملابس والاسلحة التى جعلها لها بالتسخير فقد جعل للانسان قوة التعلم بالعقل والفكر وتحصيل الملابس والاسلحة والآلات المختلفة ووكله الى نفسه من الاستفادة ومكنه من ذلك وذلك فضيلة لا نقيصة ورفعة لا ضعة فانه باعطائه العلم والعقل واليد العاملة قد أعطاه كل شيء ولو أعطى كل شيء حسب ما أعطى البهائم شيئا فشيئا لكان قد منع كل شيء لان بعضه كان يمنعه عن استعمال البعض والي تمكن الانسان من تحصيل مايريده أشار الله تعالى بقوله «والله أخرجكم من

ومنه المثل (اصنع من سرفة) وسرفت السرفة الشجرة اكلت ورقها ومنه السرف الذى هو الحد فى النفقة

بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » وقد ظن قوم ان الله تعالى خلق الناس من بين الحيوان خلقا منقوصا اذ لم يعطوا سلاحا يدفعون به عن انفسهم كما أعطي كثيرا من الحيوان أسلحة الانياب والمخالب اذ لم يكفهم لباسهم كما كفي الحيوان بل قد أحوجهم الى تطهير البدن وقد أغناها عنه قالوا ولذلك قال الله تعالى « وخلق الانسان ضعيفا ». وليس كذلك والصحيح عند المخلصين ان الانسان وان كان ضعيفا بالاضافة الى الباري تعالى والي الملأ الاعلى فليس يقصر عن الحيوان جميعه من جهة ماظنوه فان الله تعالى بحكمته البارعة أعطى كل واحد من الحيوان سلاحا بقدر ماعلم من مصلحته فبعض جعل له آلة الهرب كالعدو وبعض جعل له رمحا يدفع به كالقرون للبقر والغنم وبعض دبوسا كالحافر للفرس والحمار وبعض نشابا كالشوك للقنفذ وجعل لكلٍ لباسا بحسب كفايته والهم كلا منها صنعة يتعاطاها بطبعه وجعل للانسان بدل ذلك الفكر والتمييز الذى يمكنه ان يتخذ به كل آلة وكل ملبس على قدر حاجته اليه ويتناوله متى شاء ويضعه متى أحب ويستبدل به كيفما أراد والحيوان ليس لها أن تضع أسلحتها

متى مااستغنت عنها ولا ان تستبدل بها فهذا دليل على تمام الانسان ونقصان الحيوانات والانسان بالفكر والروية يقهر الحيوانات التى هي أقوي منه لانه يهيئ بفكرته لكل منها آلة يصطادها بها فاذا العقل الذى أعطاه ليحصل به كل مايحتاج اليه أعلى وأشرف فانه مرآة اذا جلاها أطلع بها على ملكوت السموات والارض

﴿ الباب السادس عشر ﴾

فى سعادة الانسان ونزوعه اليها

قال بعض الحكماء جعل الله لكل شيء كما لاينساق اليه طبعا وقد هداه الى التخصيص به تسخيرا كما نبه الله عليه بقوله تعالى «اعطى كل شيء خلقه ثم هدي» . وللانسان سعادات ابيحت له وهى النعم المذكورة فى قوله تعالي «وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها» وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان ضرب دائم لايبيد ولا يحول وهو النعم الاخروية وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية والنعم الدنيوية متى لم توصلنا الى تلك السعادات فهى كسراب بقيعة وغرور وفتنة وعذاب كما وصفه الله تعالى فى كتابه «انما مثل

الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء .. الآية) . وما أصدق ماقال الشاعر

انما الدنيا كرؤيا أفرحت من رآها ساعة ثم انقضت

﴿فصل﴾

ما أحد الا وهو فازع الي سعادة يطلبها بجهد ولكن كثيرا مايخطئ فيظن ماليس بسعادة فى ذاته انه سعادة فيغتر بها فيكون كالموصوف بقول الله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) . وبقوله تعالى (اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شىء) وقال الشاعر

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعه
والمرء يغلط فى تصرف حاله فلربما اختار العناء على الدعه

﴿ فصل ﴾

النعم الدنيوية انما تكون نعمة وسعادة انما تنوولت على مايجب وكما يجب ويجرى بها على الوجه الذى لاجله خلق وذلك ان الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر مايتوصل به الى النعم الدائمة

والسعادة الحقيقة وشرع لنا فى كل منها حكما بين فيه كيف يجب ان يتناول ويتصرف فيها لكن صار الناس فى تناولها فريقين فريق يتناولوه على الوجه الذى جعله الله لهم فانتفعوا به فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى (الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور). وقوله عز وجل (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) وقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوأنهم فى الدنيا حسنة). فهؤلاء حيوا بها حياة طيبة كما قال تعالي (فلنحيينه حياة طيبة). وفريق يتناولوها لا على الوجه الذى جعلها الله لهم فركنوا اليها فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة فتعذبوا بها عاجلا وآجلا وهم الموصوفون بقوله تعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون)

﴿ فصل ﴾

والسعادات الاخروية ليس لنا تصور كنهها مادمنا فى دار الدنيا ولذلك قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة

اعين) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى اعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * والسبب في قصورنا عن تصورها شيئان احدهما ان الانسان لا يمكن ان يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه واذا لم يدركه ووصف له يجري مجري صبي توصف له لذة الجماع فلا يمكن أن يتصور حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه وكالاكمه توصف له المرآة وحالنا في اللذة الاخروية هكذا فانا لا نتصورها على الحقيقة الا اذا طالعناها فاذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل ماد ونها كما قال تعالى «أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» والثاني ان لكل قوة من قوى النفس وجزء من اجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها فلذة العين في النظر الى ما تستحسنه ولذة السمع في الاستماع الى ما يستطيبه ولذة اللمس في لمس ما يستلذه ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره ولذة الفكر في امر مجهول عنده يتعرفه وكل واحد من هذه القوي والاجزاء اذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن ادراك لذتها يكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظمأ واذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

واذا كان كذلك فاللذات الاخروية هى لذات لاتدرك الا بالعقل المحض وعقول أكثر من فى هذه الدار مولهة معوقة عن ادراك حقائق اللذات الاخروية فلاتشعر بها كالخدر (١) لآفة عرضت له فلايحس بالسبب المؤلم . وكالمريض الذى لايحس بالجوع وان كان جوعه يؤذيه ولا يشتهى الطعام ان كان فقد الطعام يضنيه بل انما يحس بالجوع اذا زال السبب المؤلم . وايضا فعقول أكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الاشياء فكما ان الصبيان ماداموا صغارًا لايحسون باللذات والآلام التى تعرض للرجال فيتعللون بالاباطيل والاضاليل كذلك من كان فى عقله صبيا لم يطلع على الحقائق وبالاعتبار بهم قال الله تعالى «وماهذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب» وقال تعالى «فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» ولما أراد الله تعالى ان يقرب معرفة تلك اللذات من افهام الكافة شبهها ومثلها لهم بانواع ماتدركها حواسهم فقال تعالى «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار

(١) خدر العضو استرخى فلا يطيق الحركة

من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى »ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم وقال (مثل الجنة التى وعد المتقون) ولم يقل الجنة ليذبه الخاصة على ان ذلك تصوير وتمثيل فالانسان وان اجتهد ما اجتهد ان يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له اليها الا على احد وجهين احدهما ان يفارق هذا الهيكل ويخلف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك كما قال الله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا قل انتظروا انا منتظرون) والثانى ان يزيل قبل مفارقة الهيكل الامراض النفسانية المشار اليها بقوله تعالى (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وارجاسها المشار اليها بقوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فيطلع من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد له كما حكي عن حارثة حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم عزفت (١) نفسى من الدنيا فكأنى انظر الى عرش ربى بارزا واطلع على أهل الجنة يتزاورون وعلى أهل النار يتعاوون فقال له النبي صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم . وقال أمير المؤمنين على عليه السلام لو كشف الغطاء

(١) عزف عن الشيء انصرف عنه

مازددت يقينا

الباب السابع عشر

في حال الانسان في دنياه ومايحتاج ان يتزود منها

الانسان مسافر ومبدأ سفره من حيث ماأشار اليه تعالى بقوله (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) وحيث قال فى صفة نبيه (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ومنتهى سفره دار السلام ودار القرار . وله فى سفره أربعة منازل ظهر أبيه وبطن أمه وظهر الارض والموقف . وله حالتان حالة هو فيها مستودع وهو مادام فى هذه المنازل وحالة هو فيها مستقر وهو اذا حصل فى دار القرار والى ذلك اشار الله تعالى بقوله (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع) والمنزل الذى فيه يحتاج الى تزود مادام على ظهر الارض فالانسان فى كدح وكبد[1] مالم ينته الى دار القرار كما قال الله تعالى (يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه) وقال تعالى (لقد خلقنا الانسان فى كبد) وهو مجبول على طلب

(١) الكدح العمل والكد والكبد الشدة وكابد الامر قاسى شدته

الراحة لكن الناس فى طلبها علي ضربين ضرب عموا عن الآخرة وقالوا (ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) أوفعلوا فعل من قال ذلك وان لم يقولوا قولهم فطلبوا الراحة من حيث لا راحة وهم كالموصوفين بقوله عزوجل (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) وقوله (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض .) الآية فانهم طلبوا من الدنيا ماليس فى طبيعتها ولا موجودا فيها ولها وما احسن قول الشاعر

اريد من زمني ذا ان يبلغنى ماليس يبلغه فى نفسه الزمن

وقال آخر

مضى قبلنا قوم رجوا أن يقوموا بلا تعب عيشا فلم يتقوم

وضرب عرفوا الدنيا والآخرة وعلموا ان الدنيا كما قال الله تعالى (ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين وان الدار الاخرة لهى الحيوان) وعلموا ان فيها يستقر الانسان ويطمئن كما قال الله تعالى (يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) وانه يحتاج الى ان يسافر اليها كما قال عليه السلام سافروا تغنموا . فاحتملوا المشقة علما ان كل تعب يؤديهم الى راحة فهو راحة فسعدوا كما قال الله تعالى

(فأما الذين سعدوا ففى الجنة).

وقد جعل للانسان حرثين مفيدين لزادين أحدهما روحانى كالمعارف والحكم والعبادات والاخلاق الحميدة وثمرته الحياة الابدية والغنى الدائم والاستكثار منه محمود ولا يكاد يطلبه الا من قد عرفه وعرف منفعته. والثانى جسمانى كالمال والاثاث وفى الجملة ماقد نبه الله تعالى عليه بقوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث). وثمرته ان تحصل به الحياة الدنيوية الفانية ويسترجع من الانسان اذا فارق دنياه ولا ينتفع منه بشئ الا بقدر ما استعان به فى الوصول الى الزاد الاخروي كما نبه الله تعالى عليه بقوله (وما الحياة الدنيا فى الاخرة الا متاع). ولا يولع بالركون اليها الا من جهل حقائقها ومنافعها والاستكثار منه ليس بمذموم مالم يكن مثبطا لصاحبه عن مقصده وكان متناولا على الوجه الذي يجب وكما يجب ومجعولا الى الوجه الذى ينتفع به فى مقصده لكن تناوله على هذا الوجه والاستكثار منه لا يتأتى الا اذا كان السلطان

عادلا والامور جارية على اذلالها[1] فيحفظ الناس معاملاتهم على مقتضى الشرع ثم يكون صاحبه اذا تناوله كما قال تعالى (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فاذا لم يكن الامر كما ذكرنا من الاستقامة فليس الا الاقتصاد والاقتصار والتبلغ بما أمكن حتى ينقضى السفر. والموفق فى الدنيا اذا رأي نفسه قاصرة عن الجمع بين الامرين اهتم بما يبقى وأقل العناية بما يفنى وآثر الآخرة على الدنيا فلا يلتفت الى الدنيا الا بقدر ما يتبلغ به الى الآخرة مراعيا فيه حكم الشرع ومحافظا لقول الله عز وجل (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم ما انا والدنيا انما مثلى فيها مثل راكب سار فى يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقام فى ظلها ساعة ثم راح وتركها وقد نبه الله تعالى على حال من يريد ان يتجرد ويتخلص من حبالة[2] الدنيا على سبيل المثل بقوله (ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى

(١) يقال امور الله جارية على اذلالها اى مجاريها جمع ذل بالكسر

(٢) الحبالة ككتابة المصيدة

الا من اغترف غرفة بيده) . ومحبة الدنيا كما قال النبي صلي الله عليه وسلم رأس كل خطيئة. وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم من سكن قلبه حب الدنيا بلى بثلاثة شغل لا يبلغ مداه وفقر لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه. وقال صلى الله عليه وسلم من كانت الدنيا اكبر همه فرق الله تعالى عليه همته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة اكبر همه جمع الله تعالى شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وهذا معنى قوله عز وجل (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) ومعرفة ذلك والوصول اليه لا يمكن الا ان يستضىء العقل بنور الشرع متعمدا على من له الخلق والأمر

الباب الثامن عشر

فى تظاهر العقل والشرع وافتقار احدهما الى الآخر

اعلم ان العقل لن يهتدى الا بالشرع والشرع لا يتبين الا بالعقل فالعقل كالاس والشرع كالبناء ولن يغني اس مالم يكن بناء ولن يثبت بناء مالم يكن اس. وأيضا فالعقل كالبصر والشرع

كالشعاع ولن يغنى البصر مالم يكن شعاع من خارج ولن يغنى الشعاع مالم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه) وأيضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذى يمده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضىء الزيت قال الله تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء). والله هو الهادي. وأيضا فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر فى غير موضع من القرآن نحو قوله (صم بكم عمى فهم لايعقلون). ولكون العقل شرعا من داخل قال فى وصف العقل (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فسمى العقل دينا. ولكونهما متحدين قال (نور على نور) أى نور الشرع ونور العقل ثم قال (يهدي

الله لنوره من يشاء) . فجعلهما نورا واحدا فالشرع اذا فقد العقل عجز عن اكثر الامور عجز العين عند فقد الشعاع

واعلم ان العقل بنفسه قليل الغناء[1] لا يكاد يتوصل الا الى معرفة كليات الاشياء دون جزئياتها نحو ان يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطى الجميل وحسن استعمال العدالة وملازمة العفة ونحو ذلك من غير ان يعرف ذلك فى شيء شيء والشرع يعرف كليات الاشياء ويبين ما الذى يجب ان يتعقد فى شيء شيء وما الذي هو معدلة فى شيء شيء ولا يعرفنا العقل مثلا ان لحم الخنزير والدم والخمر محرم وانه يجب ان يتحامى من تناول الطعام فى وقت معلوم وان لا تنكح ذوات المحارم وان لا تجامع المرأة فى حال الحيض فان اشباه ذلك لا سبيل اليها الا بالشرع فالشرع نظام الاعتقاد الصحيحة والافعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل . ولاجل ان لا سبيل للعقل الى معرفة ذلك قال الله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . وقد قال الله تعالى (ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت

(١) الغناء بالفتح والمد النفع

الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى). والى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا). وعنى بالقليل المصطفين الاخيار

الباب التاسع عشر

فى فضيلة الشرع

اعلم ان أحكام الشرع من وجه دواء ومعجون مفروغ منه تولى ايجاده من له الخلق والأمر. وهو دواء مفيد للحياة الابدية والسلامة الدائمة كما قال الله تعالى (أو من كان ميتا فاحييناه) وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم). فجعل ذلك روحا لافادة الحياة الابدية. وقال الله تعالى (قل هو للذين امنوا هدى وشفاء) وقوله (شفاء لما فى الصدور وهدي ورحمة للمؤمنين) *ومن وجه هو ماء مطهر مزيل للانجاس والارجاس النفسية كما قال الله تعالى فى وصفه للقرآن (انزل من السماء ماء فسألت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا). وكذلك قال الله تعالى (انما يريد الله

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)*ومن وجه هو نور وسراج مزيل للظلمة والحيرة والجهالة قال الله تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم). وقوله تعالى (الله نور السموات والارض)*ومن وجه وسيلة الى الله عز وجل كما قال (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة). وقال فيمن مدحهم (يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته) وقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) وقوله تعالي (فليرتقوا في الاسباب)*ومن وجه هو الطريق المستقيم كما قال الله تعالى (وان هذا صراطي مستقيما)

﴿فصل﴾

ذكر بعض الحكماء ان الارض المقدسة المذكورة فى قوله تعال (ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم) هى فى الدنيا الشريعة وفى الآخرة الجنة لانها هى التى اذا دخلها الانسان لا يرتد على دبره ونال السعادة الكبرى بلا مثنوية[1]

(١) يقال هبة ليس فيها مثنوية ولا ثنيا اى استثناء

فأما بيت المقدس فى الارض فان من يدخله فبنفس دخوله اياه لا يستحق مثوبة بل المثوبة تستحق بامور أخر يكون دخوله المكان الذى هو بيت المقدس آخرها بعد ان يكون دخوله على وجه مخصوص وفى حال مخصوص قال وعلى هذا الحرم المذكور فى قوله تعالى (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون). وسأل جعفر بن محمد الصادق بعض الفقهاء عن هذه الآية فقال اريد بها مكة فقال واعجبا واى أرض اكثر تخطفا لمن حولها من مكة. ويدل على ما قال قول الله تعالى بعد ذلك (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى أفلا تعقلون) وكذلك قوله تعالى (واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين). والسفر الموعود بالغنيمة بقول النبى صلى الله عليه وسلم سافروا تغنموا هو السفر الى هذه الدار وكذلك الفرار المدعو اليه من جهة المثل بقوله (ففروا الى الله) وكذا الحج الاكبر الذي دعا الناس اليه بقوله (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) وقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وكذا الجهاد

الاعظم فى قوله تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده) والهجرة الكبرى فى قوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)

الباب العشرون

فى ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الله فليس بانسان

لما كان الانسان انما يصير انسانا بالعقل ولو توهمنا العقل مرتفعا عنه لخرج عن كونه انسانا ولم يكن اذا تخطينا الشبح المائل الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة والعقل لن يكمل بل لا يكون عقلا الا بعد اهتدائه بالشرع كما تقدم ولذلك نفى العقل عن الكفار لما تعروا عن الهداية بالشرع فى غير موضع من كتابه والاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى فالانسان اذا فى الحقيقة هو الذى يعبد الله ولذلك خلق كما قال الله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) وكما قال تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فكل ما أوجد لفعل فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان فى حكم المعدوم ولذلك كثيرا ما يسلب عن الشىء اسمه اذا وجد فعله ناقصا كقولهم للفرس الردىء ليس هذا بفرس وللانسان ليس هذا بانسان . ويقال فلان لا عين له ولا أذن

له اذا بطل فعل عينه وأذنه وان كان شبحهما باقيا وعلى هذا قال تعالى (صمٌ بكمٌ عميٌ) فيمن لم ينتفع بهذه الاعضاء فالانسان يحصل له من الانسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التى لاجلها خلق فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الانسانية ومن رفضها فقد انسلخ من الانسانية فصار حيوانا أو دون الحيوان كما قال الله تعالى فى وصف الكفار (إن هم الا كالانعام بل هم اضلُّ سبيلا) وقال (ان شرَّ الدواب عند الله الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون) فلم يرض ان يجعلهم انعاما ودوابَّ حتى جعلهم اضل منها وجعلهم من اشرارها واخرج كلامهم عن جملة البيان فقال تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءً وتصدية) تنبيها على انهم كالطيور التى تمكو وتصدّي [1] ونبه تعالى بنكتة لطيفة على ان الانسان لا يكون انسانا الا بالدين ولا ذا بيان الا بقدرته على الاتيان بالحقائق الدينية فقال تعالي (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) فابتدأ بتعليم القرآن ثم بخلق الانسان ثم بتعليم البيان ولم يدخل الواو فيما بينهما وكان الوجه على متعارف الناس ان يقول خلق الانسان وعلمه البيان وعلمه القرآن فان ايجاد الانسان

(١) مكا الطائر صفر وصدى صفق

بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن لكن لما لم يعد الانسان انسانا ما لم يتخصص بالقرآن ابتدأ بالقرآن ثم قال خلق الانسان تنبيها على ان بتعليم القرآن جعله انسانا على الحقيقة ثم قال علمه البيان تنبيها على ان البيان الحقيقي المختص بالانسان يحصل بعد معرفة القرآن فنبه بهذا الترتيب المخصوص وترك حرف العطف منه وجعل كل جملة بدلا مما قبلها لا عطفا على ان الانسان ما لم يكن عارفا برسوم العبادة ومتخصصا بها لا يكون انسانا وان كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بيانا . فان قيل فعلى ماذكرته لا يصح ان يقال للكافر انسان وقد سماهم الله بذلك في عامة القرآن . قيل انا لم نقل انا لا نسمي الكافر انسانا على تعارف الكافة بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضي ان لا يسمي به الا مجازا ما لم يوجد منه العقل المختص به ثم ان سمي به على سبيل تعارف العامة فليس ذلك بمنكر فكثير من الاسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع ان ليس استعماله على ما استعملوه كقولهم الغنى فانهم استعملوه في كثرة المال وبين الشرع ان الغني ليس هو كثرة المال قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى بكثرة المال وانما الغنى غني النفس .

فيشير الى ان الغنى ليس هو كثرة المال وقال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) أى كثير الاعراض[1] فاستعمله على ماهو متعارف . وجملة الأمر ان اسم الشيء اذا طلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الاشرف منه كقوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك . وقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) وان كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم . وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعه فيقال فلان هو انسان وهذا السيف سيف ولهذا قيل الانسان المطلق هو نبي كل زمان وقد قال عليه الصلاة والسلام الناس اثنان عالم ومتعلم وماعداهما همج[2] وقال بعض العلماء قول من قال الانسان هو الحى الناطق الميت صحيح وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من انه من الحياة الحيوانية والموت الحيوانى والنطق الذى هو فى الانسان بالقوة وانما اريد بالحي من كان له الحياة المذكورة فى قوله تعالي (لينذر من كان حيا)

(١) العرض بوزن الفلس المتاع وجمعه عروض ولايجتمع اعراض الاعلى لغة من فتح الوسط (٢) يقال للرعاع الحمقى انهم همج واصله الذباب الصغير يسقط على وجه الغنم وغيرها

وبالنطق البيان المذكور بقوله (علمه البيان) وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة فيكون حينئذ ميتا بالارادة حيا بالطبيعة كما قيل مت بالارادة تحى بالطبيعة وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام من امات نفسه فى الدنيا فقد احياها فى الآخرة

الباب الحادى والعشرون

فيما يتعلق بالشرع من الافعال

للانسان ضربان من الاحوال لا ينفك منهما ضرب لا يلحقه فيه محمدة ولا مذمة ولا فى جنسه تكليف وذلك شيئان احدهما أحوال ضرورية لا يمكنه ان يتفصى[1] منها كنبض العرق والتنفس ومايجرى مجراهما من الاحوال الضرورية . والآخر مايقع من الانسان على سبيل السهو والخطأ وان كان جنسه مقدورا له وهو المذكور فى قول النبي صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وضرب تلحقه فيه المحمدة والمذمة وفى جنسه التكليف وذلك ثلاثة أشياء احدها الافعال المختصة

(١) تفصى الانسان من الشهوة تخلص

بالجوارح كالقيام والقعود والركوب والمشى والنظر وكل مايحتاج الى استعمال الاعضاء فيه . والثانى حفظ عوارض النفس كالشهوة والخوف واللذة والفرح والغضب والشوق والرحمة والغيرة وما اشبه ذلك . والثالث مايختص بالتمييز والعلم . وكل واحد من هذه الثلاثة اما ان يحمد عليه الانسان أو يذم . فحمده ان تكون افعاله جميلة وعوارض نفسه مستقيمة وقلبه ذكيا حتى يعتقد الحق ويقوى على معرفته اذا ورد عليه . والمذمة تلحقه ان كانت على اضداد ذلك والعبادات بهذه الاشياء الثلاثة تختص . والله تعالى في كل فعل يتحراه الانسان عبادة سواء كان الفعل واجبا أو ندبا أو مباحا وتكون تلك العبادة مبينة اما ببديهة العقل أو بالكتاب أو بلسان النبي أو باجماع الامة أو بالاعتبارات والاقيسة المبنية على هذه الاصول بل ما من حكم الا وكتاب الله ينطوى عليه كما قال الله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) عرفه من عرفه وجهله من جهله . وما من مباح الا واذا تعاطاه الانسان على مايقتضيه حكم الله تعالى كان كالانسان فى تعاطيه عابدا لله مستحقا لثوابه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد أنك لتؤجر فى كل شيء حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك . ومخاطبته لسعد

بذلك لما عرف منه انه يراعي فى افعاله حكم الله تعالى . وعلى هذا الوجه قال ما من مسلم غرس غرسا لم يأكل منه شيئا الا كان له صدقة ومراعاة امر الله فى جميع الامور دقيقها وجليلها مستحب للكافة وواجب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كل من تقرب منزلته من منزلته لقول الله تعالى (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك)

الباب الثانى والعشرون

فى تحقيق العبادة

العبادة فعل اختيارى مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى طاعة للشريعة . فقولنا فعل اختيارى يخرج منه الفعل التسخيرى والقهرى ويدخل فيه الترك الذى هو على سبيل الاختيار فان الترك ضربان ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل . وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل . وبقولنا مناف للشهوات البدنية يخرج منه ما ليس بطاعة واما الافعال المباحة كالاكل والشرب ومجامعة المرأة فليس بعبادة من حيث انها شهوة ولكنها قد تكون عبادة اذا تحرى بها حكم الشريعة وانما قيل تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى لانها ان

خلت عن نية أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب الى الله تعالي بل اريد بها مرآة لم تكن أيضا عبادة وانما قيل طاعة للشريعة لأن من انشأ من نفسه فعلا ليس بسائغ فى الشريعة لم يكن عبادة وان قصد به التقرب الي الله تعالي فالعبادة اذا فعل يجمع هذه الاوصاف كلها

﴿الباب الثالث والعشرون﴾

فى انواع العبادة من العلم والعمل

العبادة ضربان علم وعمل وحقهما ان يتلازما لأن العلم كالأس والعمل كالبناء وكما لا يغنى أس مالم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس كذلك لا يغنى علم بغير عمل ولا عمل بغير علم ولذلك قال الله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والعلم اشرفهما لكن لا يغني بغير عمل ولشرفه قال رجل للنبي صلي الله عليه وسلم أيما الاعمال افضل يارسول الله فقال العلم فاعاد عليه السؤال فقال العلم فقال الرجل فى الثالثة اسألك عن العمل لا عن العلم فقال عليه السلام عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل . وقال عليه السلام طلب العلم فريضة على كل مسلم * فالعلم ضربان نظرى وعملى فالنظرى ما اذا علم كفى ولم يحتج

فيه بعده الى عمل كمعرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السموات وما اشبه ذلك . والعملى ماذا علم لم يغن حتى يعمل به كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين . والاعمال ثلاثة اضرب منها مايختص بالقلب ومنها مايختص بالبدن ومنها مايشارك فيه البدن القلب . والعلم ايضا اذا نظر اليه وهو مكتسب فاكتسابه عمل واذا نظر اليه وقد اكتسب وتصور فى القلب خرج فى تلك الحال عن ان يكون عملا ومن وجه آخر ضربان واجب وندب فالواجب يقال له العدل والندب يقال له الاحسان وهما المذكور ان فى قول الله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) فالفرض والعدل تحرى الانسان لما اذا عمله اثيب واذا تركه عوقب والندب والاحسان تحرى الانسان لما اذا عمله اثيب واذا تركه لم يعاقب والانصاف من العدل والتفضل من البر والاحسان فالانصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه والتفضل والبر مقابلة الخير باكثر منه والشر بأقل منه . فالاحسان والتفضل احتياط فى العدالة والانصاف ليؤمن به من وقوع

خلل فيه وذلك انك اذا زدت فى اعطاء ما عليك ونقصت فى اخذ مالك فقد احتطت واخذت بالحزم كدفع زيادة زكاء الى الفقير وترك ما أحل لك ان تتناول من مال اليتيم . فالعدالة ان كانت جميلة فالتفضل احسن منها ولذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة (ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل) وقال سبحانه بعده (وأن تعفوا اقرب للتقوى) وقال عز وجل (ولا تنسوا الفضل بينكم) اشارة الى ان الاحسان حسن والتفضل احسن وقال عزوجل (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) فالانسان انما يكون محسنا متفضلا بعد ان يكون عادلا منصفا . فاما من ترك مايلزمه ثم تحرى مالا يلزمه فانه لا يقال له متفضل ولا يجوز تعاطي التفضل الا لمن كان مستوفيا وموفيا لنفسه فأما الحاكم المستوفى والموفى لغيره فليس له الا تحري العدالة والنصفة [1]

﴿فصل﴾

العلوم من حيث الكيفية ضربان تصور وتصديق فالتصور هو ان يعرف الانسان معني الشيء صح عنده ذلك بدلالة أو لم

(١) النصفة محركة الانصاف

يصح كمن عرف الصلاة وشرائطها وان لم تثبت صحتها عنده بدلالة والتصديق هو ان يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة تقتضي صحته

والتصديق على ثلاثة اضرب اما بغلبة الظن وهو ان يكون عليه دلالة وقد يعترضها شبه توهنها أو تبطلها قال الله تعالى (اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) واما بعلم اليقين وهو ان يصير بحيث يعلم ويعلم انه يعلم ولا تعترضه شبه توهنه كالعلم مثلا بان ثلاثة وثلاثة ستة وانه لا يصح ان يكون أكثر من ذلك أو اقل قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) واما بعين اليقين وهو أن يرى بعقله الشيء ويعانيه ببصيرته في حال اليقظة والنوم وقد نبه الله تعالى على هذه الوجوه بقوله (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) * فاما التصورات المجردة فالعامة الذين قال الله تعالى فيهم (ولو ردوه الي الرسول والي أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه) وأما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله بقوله (الذين يظنون أنهم

ملاقوا ربهم)*وأما علم اليقين فللخاصة*وأما عين اليقين ففي الدنيا للانبياء ولبعض الصديقين. والي نحوه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تنام عيني ولا ينام قلبي. وبقوله انى ارى من خلفى كما أرى من قدامى قال أمير المؤمنين على عليه السلام لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وقال بعض الحكماء علم اليقين يحصل للعقل بالفكر والذكر فان العقل بفكره أى ببحثه يدرك المعارف وبذكره يستحضرها اذا نسيها وغفل واشتغل عنها وبذهنه ينظر اليها دائما كما ننظر نحن الى محسوس غير غائب عن ابصارنا بلا حاجة الى بحث وطلب وتفكر وتذكر وكذلك قيل الانسان بعقل فينظر الى الحق بالفكر والملائكة دائما ينظرون اليه بالذهن من غير حاجة الى تفكر وطلب

﴿ فصل ﴾

للانسان فى استفادة العلم وافادته ثلاثة أحوال حال استفادة فقط وحال استفادة ممن فوقه وافادة لمن دونه وحال افادة فقط وقل من يستحق ان يوجد مفيدا غير مستفيد ففوق كل ذى علم عليم الى ان ينتهي الامر الي علام الغيوب فقد نبه الله تعالي علي الحاجة الي الاستفادة بما حكاه من قول موسى عليه السلام لصاحبه (هل اتبعك على ان

تعلمنى مما علمت رشدا) ونبه بما ذكر فى قصة سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله (احطت بما لم تحط به علما) ان الكبير قد يفتقر الى الصغير فى بعض العلوم فاذا الانسان مادام حيا يجب أن لا يخرج من كونه مستفيدا ومفيدا كما قال النبى صلى الله عليه وسلم الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج

﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾

فى ان الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها

لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه فان الله غنى عن العالمين ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى (يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) بل كلفهم ليزيل انجاسهم وامراضهم النفسية فبذلك يمكنهم ان يحصلوا حياة أبدية وسلامة باقية سرمدية فان من ولد يكون ميتا بالاضافة الى أصحاب الدار الآخرة وفاقدا للعين التى بها يعرفهم والسمع الذى به يسمع تحاورهم واللسان الذى به يخاطبونه ويخاطبهم والعقل الذى به يعقلهم فليس تلكم الحياة والعين والسمع ما للانسان فى الحياة الدنيا وكيف يكون كذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم أمواتا

وصما وبكما وعميا فان الانسان له قوة على تحصيل تلك الامور فى ابتداء أمره وان أهمل نفسه فاتت عنه تلك القوة فلا يمكنه بعد قبول ذلك كالفحم اذا صار رمادا فلا يقبل بعد ذلك نارا فمن استمر فى كفره وفسقه وتمادى فيه صار اما ميتا أو مريضا أو أصم لا يقبل الشفاء ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) وقال تعالى (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) وقال تعالى (فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) وقال تعالى (انما المشركون نجس) وقال تعالي في المؤمنين (لينذر من كان حيا) وقال فيهم (أولي الايدي والابصار) فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل ان تبطل عنه هذه القوى أعنى قبول ذلك فصار حيا سميعا بصيرا طاهرا وحصل زادا كما أمره الله تعالي بقوله (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض الا الي الله تصير الامور) وائتمر له تعالى بقوله (سابقوا الى مغفرة من ربكم) واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه (يسارعون فى

الخيرات) فجدير ان يفلح فيحصل هذه السعادة كما قال الله تعالي (لعلكم تفلحون)

الباب الخامس والعشرون

في بيان الامراض والانجاس التى لايمكن ازالتها الا بالشرع

كما ان فى بدن الانسان عوارض وأمورا موجودة عند الولادة أو توجد حالا فحالا بحكمة تقتضى ذلك وهي تعد نجاسات لابد من إماطتها كلها أو إماطة فضولاتها وذلك كالسلى[1] والسرة والقلفة والعقيقة الموجودة فى الصبي عند الولادة وكالاوساخ والقمل والظفر وشعر العانة وشعر الابط كذلك فى نفس الانسان عوارض هى نجاسات وأمراض نفسانية يلزم أماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم . ويدل على كون ذلك مخلوقا فيه وأمره باماطته واماطة فضلاته ماذكر الله تعالى فى مواضع من كتابه بقوله « خلق الانسان من عجل » فذكر انه مخلوق منه كما تري . ثم امره ان ينحيه عن نفسه وان لا يستعين به فقال (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) ثم أمره بالعلم والعدل فى غير موضع

(١) السلى على وزن الحصى الذى يكون فيه الولد

من كتابه . وقوله تعالى (واحضرت الانفس الشح) ثم قال (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فأمره باتقاء الشح مع احضاره اياه . وقوله تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) ووصفه بالكفور والقتور فى قوله (وكان الانسان كفورا) وقوله تعالى (قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتور) فأدخل عليه كان تنبيها على ان ذلك فيه غريزى موجود قبل لاهو شىء طارىء عليه . وقوله تعالى (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) ثم نهى عن اكثر الجدال فالانسان يحتاج ان يستعمل هذه القوى فى الدنيا كما يجب وفى وقت مايجب وبقدر مايجب وان يميط فضولاتها قبل خروجه من الدنيا حسب ماوردت به الشريعة فانه متى لم يتطهر من النجاسة ولم يزل أمراض نفسه لم يجد سبيلا الى نعيم الاخرة بل ولا الى طيب الحياة الدنيا وذلك ان من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقا والباطل باطلا فلا يشغله الا مايعنيه ولا يتناول الا مايعنيه فيحيا حياة طيبة كما قال تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) ولا تصير قنياته فى الدنيا وبالا عليه وعذابا كما قال الله تعالى فى الكفار) فلا

تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) ويصير قلبه اذا تطهر مقر السكينة والارواح الطيبة كما وصف الله تعالى المؤمنين بقوله (هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) وعرف الطريق التي بها التوصل الى الجنة المأوي ومصاحبة الملأ الاعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فيسارع فى الخيرات ويسابق الى مغفرة من ربه ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشبه والاثام كما قال الله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم) ولا يجد سبيلا الى سعادة الدار الاخرة كما قال الله تعالي (ايطمع كل (امرء منهم ان يدخل جنة نعيم كلا انا خلقناهم مما يعلمون) فنبه على انه لا يصلح لجنته مالم تطهر ذاته عن اشياء هى مخلوقة فيها وعلى هذا دل قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) . فحق الانسان ان يراعى هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذى يجب وكما يجب ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما

كنتم تعملون) وقد يقع للانسان شبهة فى امر هذه النجاسات فيقول اترى ان ذلك من عند غير الله فان كان من غيره فمن اين يوجده ومن اين منبعه وان كان منه فما المعنى فى ان أوجده فى الانسان ثم امره بان يزيله فيقال ما من شىء اوجده الله او امكن من ايجاده الا وفيه حكمة ومنفعة وان لم يعرف ذلك البشر لكن من الاشياء ما نفعه فى وقت مخصوص او اذا كان على قدر مخصوص ثم اذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج اليه يجب ان يزال وذلك اذ تؤمل ظاهر اذ من المعلوم ان السلا والسرة يحتاج اليهما لصيانة الولد فى وقت ثم يستغنى عنهما فيكون ابقاءهما بعد نجاسة والشعر والظفر يحتاج اليهما اذا كانا على حد واذا زادا يجب اماطتهما

الباب السادس والعشرون

فى القوى التى يجب ازالة امراضها وانجاسها والمعانى التى تحصل منها ازاله النجاسة واجتلاب الطهارة المذكورة فى قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) واكتساب الصحة واماطة المرض المذكور فى قوله تعالى (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) يكون باصلاح القوي الثلاثة

التى هي دواعى الانسان فى متصرفاته وهي قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر فباصطلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره واماتة الشهوة ويتحرى المصلحة فى المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية وباصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب والانفة وغير ذلك وباصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجربزة (١) ويتحرى الاقتصاد فى تدبير الامور الدنيوية وليس نعنى بالحكمة ههنا العلوم النظرية وانما نعنى بها الحكمة العلمية التى يتحرى بها المصالح الدنيوية وباصلاح هذه القوى يحصل فى الانسان قوة العدالة فيقتدى بالله تعالى فى سياسة نفسه وسياسة غيره فنفس الانسان معادية له كما قال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربى) وقال النبى صلى الله عليه وسلم اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك فمن ادبها أو قمعها امن ظلمها والى هذا اشار الله تعالى

(١) الجربز بالضم الخب الخبيث معرب كربز والمصدر الجزبزة والخب بالفتح والكسر الرجل الخداع

بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما) أى لايخاف ان تظلمه نفسه الشهوية فالاعمال الصالحة حصن منها لقول الله تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

الباب السابع والعشرون

في كون الانسان مفطورا على اصلاح النفس

الانسان مفطور فى اصل الخلقة على ان يصلح افعاله واخلاقه وتميزه وعلي ان يفسدها وميسر له ان يسلك طريق الخير والشر وان كان منهم من هو بالجملة الى احدهما اميل . وعلى تمكنه من السبيلين دل الله بقوله (اناهديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) وقوله تعالى (وهديناه النجدين) أى عرفناه الطريقين وكما انه مفطور على اكتساب الاخرين فى ابتدائه مفطور علي انه اذا تعاطى احدهما ان خيرا وان شرا الفه فاذا الفه تعوده واذا تعوده تطبع به واذا تطبع به صار له طبعا وملكة فيصير فيه بحيث لو اراد ان يتركه لم يمكنه كما قيل

﴿ وتأبى الطباع على الناقل ﴾

ويكون مثله كمثل شجر نبت فاعوج سهل فى الابتداء تثقيفه وتسويته بخيط يشد فيه أو بخشب يفرش بجنبه فيسدد به ثم اذا غلظ واشتد مستويا امن ان يعوج بل لا يمكن تعويجه وان ترك حتي يعوج فيصلب على عوجه لم يمكن بعد تثقيفه كما قال الشاعر

يقوم بالثقاف العود لدنا ولا يتقوم العود الصليب

وعلى هذا الوجه قال الله تعالى (ان الحسنات يذهبن السيئات) وقال تعالى (ويدرأون بالحسنة السيئة) وقد توهم قوم ان لا اثر للتأديب والتهذيب فان الناس مجبولون على طبائع لا سبيل الى تغييرها فمنهم اخيار بالطبع ومنهم اشرار بالطبع واستدلوا بقول الله تعالي (قل كل يعمل على شاكلته) وقوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) فنبه الله بهذا المعني على ان كل انسان على حال لا سبيل الى تغييرها . وقول النبي صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له . وقوله عليه السلام (فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والاجل) وبقوله تعالى (ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) وقوله (انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وقوله (ولقد اخترناهم على

علم على العالمين) والناس وان تفاوتوا في اصل الخلقة فما احد الا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار والتأديب

الباب الثامن والعشرون

فى سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة

سبب تأخر الانسان عن الفضيلة لا يخلو من أوجه اما ان يكون نقصا فى اصل خلقته وعجز امر كبا فى جبلته يتقاعد به عن تحصيل القوة وجمع الآلة التى يتوصل بها الى السعادة كمن تضعف نحيزته[1] أولا يفضل عن طلب معايشه الضرورية فى وقته أولا يجد هاديا يرشده فمن كان كذلك فمعذور لقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) واما انه غير عاجز عن ذلك لكن لم يساعده على بلوغه عمره فذلك قد وقع اجره على الله كما قال الله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله) واما ان يتفق له مرب ومعلم مضل فيضله عن الطريق وهذا ان لم يتمكن من الاهتداء بمن يرشده ويسدده يكون معذورا والاثم فيما يرتكبه

(١) التحيزة البيطعة

لمن قداضله لاله كما قال الله تعالى فى المضلين (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الاساء مايزرون) وان تمكن بعد ممن يهديه فلم يهتد به يكون هو ومضله مشتركين فى الاثم كما قال الله تعالى (أحشروا الذين ظلموا وازواجهم) واما ان يكون ضلاله من جهة نفسه لامن جهة شيء مما تقدم وذلك هو المتوعد بالعذاب فمن ازاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريقة الرشاد يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) وبقوله (ولقد اريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) واكثر منه عقوبة من استفاد العلم وعرف الحق وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا كمن وصفه الله بقوله (ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم) وبقوله (ومن يرتدد منكم عن دينه الآيه)

الباب التاسع والعشرون

في احوال الناس ومنازلهم وفى تعاطى الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها

الناس فى اقامة العبادات وتحرى الخيرات على اربعة اضرب الاول من له العلم بما يجب ان يفعل وله مع ذلك قوة العزيمة على العمل به وهم الموصوفون بقوله عز وجل فى غير موضع (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) الثانى من عدمهما جميعا وهم الموصوفون بقول الله تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . وقوله ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) الثالث من له العلم وليس له قوة العزيمة على فعله فهو فى مرتبة الجاهل بل هو شر منه كما روى ان حكيما سئل متى يكون العلم شرا من الجهل فقال ان لا يعمل به . وروي عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه انه قال من كانت ضلالته بعد التصديق بالحق فهو بعيد من المغفرة * الرابع من ليس له العلم لكن له قوة العزيمة فهذا متى انقاد لاهل العلم وعمل بقولهم انجح فى فعله وصار من الموصوفين بقوله تعالى (أولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

والافعال الجميلة والقبيحة يقوي الانسان فيها بتكرير هما مرارا كثيرة وزمانا طويلا وقتا بعد وقت فى أوقات متفاوتة فان من فعل

ذلك فى شىء اعتاده واذا اعتاده تخلق به فالحذق فى الصناعة كالكتابة مثلا يكون باعتياده فعل من هو حاذق فى الكتابة. والافعال التى تحصل عن الاخلاق بعد حصولها هى بأعيانها الافعال التى يتعاطاها المتخلق بها حتى تصير خلقا فحق الانسان ان يتدرب بفعل الخير فان من تعود فعلا صار له ملكة كالصبى قد يلعب بتعاطي صناعة فيؤدى لعبه بها الى ان يتعلمها

﴿ فصل ﴾

العبادات تكون محمودة اذا تعاطاها الانسان طوعا واختارا لا اتفاقا واضطرارا ودائما لا فى زمان دون زمان ولاجل ان ذاتها حسنة لا لأجل غيرها فمن أقامها على هذا الوجه فهو الموصوف بقوله تعالى (واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما). وقال النبى صلى الله عليه وسلم اخلص يكفك القليل من العمل ولا يرضي تعالى الا الاخلاص كما قال الله تعالى (الا لله الدين الخالص). فان من فعل خيرا نحو ان يصلى لانه اتفق اجتماعه مع المصلين فساعدهم أو اكره ان يصلى أو صلاها فى شهر

رمضان مثلا دون سائر الاوقات أو لاجل ان ينال بها جاها أو مالا فليس ذلك ممن يستحق بها محمدة وكذا من ترك قبيحا أما اتفاقا أو اضطرارا أو خوفا أو فى زمان دون زمان أو لان ينال بذلك أمرا دنيويا فليس بمحمود ولهذا قال الله تعالى (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . تنبيها على ان من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الانفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب .. الآية

الباب الثلاثون

فى ارتداد الناس من طريق الخير والشر

للانسان فيما يتحراه من الخير والشر حالتان حالة يتمكن فيها من الارتداد على ادباره فيما يتعاطاه ان خيرا وان شرا وذلك قبل ان يمعن فى سيره ويتناهى فى ممره وحالة يتعذر عليه الارتداد على ادباره بل لا يكون له سبيل الى الرجوع وذلك اذا امعن فى

سيره وتناهي فى ممره. وذلك ان كل من كان متعاطيا لفعل خير فتكاسل عنه ومتعاطيا لشر فلم يقلع عنه أورثه كسله ضيق صدر بتحري الخير كما قال الله تعالى (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا). وانشراح صدره بفعل الشر كما قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا). فان استمر علي ذلك ولم يقلع اورثه ذلك رينا كما قال الله تعالي (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فأن تمادي فى ذلك واستمر أورثه ذلك غشاوة كما قال تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فان ازداد أورثه ذلك طبعا وختما كما قال تعالي (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم). وقوله (أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون). فان ازداد صار ذلك قفلا كما قال الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) ثم اذا تمادى صار قلبه موتا فلما ترجى له حياة فلا تنفعه الآيات والنذر كما قال الله تعالي (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون). ومن حيث ان الله تعالى علم من احوال من بلغ هذا المبلغ انه لا يتوب ولا يؤب قال الله تعالى (ان الذين كفروا بعد

ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) فلم يرد تعالى انهم اذا تابوا لن تقبل توبتهم بل نبه بذلك على انهم لا يتوبون فتقبل توبتهم فدل منتهى الفعل على مبدأه وهذا من كلامهم كقول الشاعر

(ولا يرى الضبُّ بها ينجحر)[1]

أى ليس بها ضب فينجحر فنفى انجحار الضب وهو فى الحقيقة نفى لوجود الضب بها وعلى هذا دل قوله تعالى (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) اي لم يكونوا ليتوبوا فيغفر لهم وعلى هذا قال الله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) . تنبيها على ان هؤلاء هم الذين يرجي لهم التوبة وعلى هذه الجملة المذكورة قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا أذنب الرجل نكتت علي قلبه نكتة سوداء فاذا أذنب ثانيا نكتت أخري فلا يزال كذلك حتي يصير قلبه كلون الشاة الرمداء . وفى خبر آخر الذنب على

(١) جحر الضب دخل جحره وهو كل شيء تحفره السباع والهوام بانفسها وجحر فلان الضب ادخله فيه فانجحر

الذنب حتى يسود القلب فلا ترجى له الاتابة. وكذا حال الانسان فيما يتعاطاه من فعل الخير فان من صبر فى اقتراف الحسنة أورثه صبره حسنا كما وصف الله به الصابرين فى مواضع من كتابه قال تعالى (ومن يقترف حسنة نزدله فيها حسنا) فان استمر فى ذلك بعض الاستمرار اهتز ونشط وانشرح به صدره كما قال تعالى (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام). فان دام على ذلك امتحن وتطهر قلبه كما قال الله تعالى (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى). ويكون كما وصفه في هذه السورة (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فان تزايد فى فعله انضم اليه من الله تعالى باعث يهزه وداع يبعثه عليه كما قال الله تعالى (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم). فحق الانسان ان لا يسامح نفسه فى الاجتهاد وان لا يخل بخير تعوده ولا يرخص لها فى شرارتكبه فتعاطي صغير الذنب يفضى الى ارتكاب الكبير والاخلال بقليل الخير يؤدى الى الاخلال بكثيره كما قال الشاعر

وازرق الفجر يبدو قبل ابيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله «ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الامر» فتبين ان قولهم للذين كرهوا ما نزل الله ادى بهم الى الارتداد على ادبارهم وقال تعالى (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) فنبه على ان بعض ما كسبوا ادى بهم الى الانهزام فالمتدرب فى فعل الخير المتقوى فيه يصير بحيث يكون له من الله تعالى واقية تحفظه عن الافعال القبيحة وتحثه على الافعال الحسنة وهذا معنى العصمة وعلى ذلك نبه الله تعالى فى صفة أوليائه بقوله (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه) وقال تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون). والمتدرب بفعل الشر المتقوى فيه قد يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه على الافعال القبيحة ويحثه على الافعال السيئة ويسد عليه طرق الافعال الحسنة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله فى صفة اعدائه (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم

سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون) وقال تعالى (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) وقد نسب الله هداية العبد وضلاله جميعا الى نفسه من حيث انه جعل خلقه وطبعه بحيث اذا تعاطى نعلا ان خيرا وان شرا فاستمر عليه يصير ذلك طبعاله ملازما لا يرجع عنه ولم ينسب المنع من الايمان الى نفسه الا بعد ذكر ما كان من اساءة العبد نحو قوله (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) فخص الذين لا يؤمنون بان جعل الشيطان أوليائهم وقال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير وقال تعالى (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون) قال الشاعر

زين فى عينك القبيح كما زين فى عين غيرك الحسن

الباب الحادى والثلاثون

فى قدر ما فى الوسع من اكتساب السعادة

الانسان لما كان على هيئة العالم أوجد فيه كل ما أوجد في العالم وكما ان في العالم اشياء لا يتأتى اصلاحها وحيوانات لا يمكن تأديبها كذلك في الانسان قوى لا يتأتى اصلاحها وتهذيبها وكان له مع ذلك مثبطات عما أمر به وتقصير عما كلف ولهذا قال الله تعالى (قتل الانسان ما اكفره من أي شيء خلقه . الى قوله كلا لما يقض ما امره) فنبه على ان الانسان لا يكاد يخرج من دنياه وقد قضى وطره ولذلك يجب على الانسان ان يجتهد في اداء ما امكنه ويطهر نفسه بقدر ما يتيسر له. والرغبة الى الله تعالى في تكفير ما قصر فيه ويتحقق انه اذا فعل ما امكنه فقد اعذر لقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) فاذا فعل ما امكنه يكون قد ترشح ان يزيل الله عنه باقي السيئات كما قال الله تعالى (يا ايها الذى آمنوا توبوا الي الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ولهذا امرنا تعالى ان ندبم الدعاء بقوله (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا) وقال تعالى (والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا) فأمرنا ان نرغب اليه في اتمام ما قصرنا عن اكتسابه وقوله (والذى

جاء بالصدق الى قوله (ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) ولهذه الجملة قال جعفر الصادق رضى الله عنه من زعم انه يصل الى الحق ببذل المجهود فهو متعن ومن زعم انه يصل اليه بغير بذل المجهود فهو متمن * ولقصور الانسان عن تزكية نفسه بالتمام قال صلى الله عليه وسلم ما احد يدخل الجنة بعمله قيل ولا انت يا نبي الله قال ولا انا الا ان يتغمدنى الله برحمته وقال تعالى تنبيها على هذا المعنى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من احد ابدا ولكن الله يزكي من يشاء) وبيان قصور الانسان عن تزكية نفسه على التمام هو ان الانسان حيوان ناطق متفكر والحيوان جوهر متنفس حساس والمتنفس جوهر متغذ متربٍ لا قوام له الا بالغذاء كما قال الله تعالى (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فالانسان مادام فى الدنيا لا ينفك عن مشاركة البهائم والسباع لكونه حيوانا محتاجا الي ما تحتاج اليه وعن مشاركة الاشجار والنبات لكونه متنفسا محتاجا الى ما تحتاج اليه . والانسان اذا لم يقتحم العقبة ويفك الرقبة ومالم يتعر عن الحاجات الدنيه لم يأمن شياطين الانس والجن وكيف يأمن وقال الله تعالى

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) قال بعض المفسرين ان ابراهيم لما سأل الله تعالى فقال (رب ارنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) انما سأله ان يريه الحياة المتعرية عن العوارض العارضة للحيوانات فقال أولم تؤمن أى أولم تتحقق قال بلى ولكن ليطمئن قلبي أى ليتصور لى كيفيه الطمأنينة أى تبري النفس من الشره والحرص والامل والافتخار واعاين الحاله المذكورة فى قوله تعالى (يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) فأمره ان يأخذ أربعة طيور غرابا وهو المخصوص بالحرص والشره ونسرا وهو المخصوص بالامل وطاووسا وهو المخصوص بالافتخار . وديكا وهو المخصوص بالشبق فأمره ان يقطعهن ويصرهن أى يدعوهن ولما فعل ذلك صرن اليه عاجلا فنبه الله تعالى بذلك على ان الانسان وان اجتهد كل الاجتهاد فى حذف هذه المعانى عن نفسه وتطهير ذاته منها لن يتطهر مادامت البشرية الدنيوية حاصلة له ولن تحصل له الطمأنينة المطلوبة . فاما مايدعيه قوم ان من الناس من قد تجرد عن هذه الخصائص حتى يستغني عن

الطعام والشراب ويصير بحيث لا تعتريه الاخلاق البهيمية فهذا ان حصل فى بعض الناس فان ذلك يكون حينئذ ملكا متشبحا يسمى باسم الانسان على سبيل الاشتراك فى الاسم فيكون متبدل الجوهر تبدل جوهر النار اذا صارت بردا وسلاما وتبدل الدعموص [1] اذا صار ضفدعا والدود اذا صار فراشا وكثيرا من النبات اذا صار جوهر آخر وحيوانا كدودة القز وليس ذلك بمنكر فى القدرة الالهية وهو حينئذ خارج عن الاستصلاح للافعال التى خلق الانسان لاجلها مستخلفا فى الارض مستعمرا فيها

﴿فصل﴾

اعلم ان من هاجر الى الله وجاهد فى سبيله فحقيق ان يهديه الى سبيله كما وعد به فى قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقال والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا الي قوله (أولئك هم المؤمنون حقا) والهجرة العظمي هجران فضول الشهوات والمجاهدة الكبرى مدافعة الهوى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم جهادك فى هواك . فمن هدى الي سبيله وامعن في مسيره مسارعا فى

(١) الدعموص بالضم دويبة توجد فى الغدران

الخيرات ومسابقا الى مغفرة ربه فحقيق ان يصير من الابدال ومعني الابدال هم الذين يبدلون من اخلاقهم وافعالهم الذميمة اخلاقا وافعالا حميدة فيجعلون بدل الجهل العلم و بدل الشح الجود وبدل الشره العفة وبدل الظلم العدالة وبدل الطيش التؤدة وعلى ذلك دل قوله تعالي (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق الى قوله يبدل الله سيئاتهم حسنات) والانسان اذا صار من الابدال فقد ارتقي الى درجة الاحباب الذين عناهم الله تعالى بقوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) فيجعله مهيبا فى البشر معظم القدر عند كل احد بل قد يبلغ مبلغا تخضع له البهائم والسباع والوحوش والحشرات كخضوعها لسليمان بن داود عليهما السلام ويصير الحديد له لينا كما لان لنبيه داود عليه السلام وتصير النار له اذا خاضها بردا وسلاما كما صارت على ابراهيم عليه السلام وتنقاد له الريح فيركبها كركوب سليمان وتسخر له المياه فيمشى عليها كتسخيرها للخضر عليه السلام ويكلمه النبات والمعادن والافلاك والنجوم فتفقهه على منافعها وتخبره بسرائرها كمكالمتها لادريس عليه السلام *روى انه

اذا احب الله عبدا البسه صورة من صورته ونفخ فيه روحا من روحه حتى ينقاد له كل حجر ومدر ويتواضع له كل طائر وسبع بل قد يخصه بكرامات لا يمكن ان يطلع على معرفتها غير من خص بها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه اعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال تعالى اشارة لها هذا المعنى (فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين) وهذه الاحوال كما تكون للانبياء فقد تكون للاولياء المخصوصين بالكرامة وليس ذلك بمستبدع ولا منكر فى قدرة الله تعالى ولا بمناف فى حكمته كما ظن بعض المتكلمين ان ذلك اظهره على غير انبيائه لا يؤمن ان يفتتن به الناس وانه يؤدى الى اشتباه امر المعجزة على الكافة فان أحكم الحاكمين لا يؤتى هذه المكرمة الا من هو أهلها كما نبه عليه سبحانه بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن بلغه هذه المنزلة فقد آتاه لا شك من العلم والحكمة قدر ما يهديه ويؤدبه وعرف ما يمسكه فيستقيم كما أمر فيه فيعرف قدره ولا يتعدى طوره

الباب الثانى والثلاثون

في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل بعده من السعادة

لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة الا جماعة من الطبعيين اهملوا افكارهم وجهلوا اقدارهم وشغلهم عن التفكر فى مبدأهم ومنشأهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة فى قوله تعالي (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) وأما من كان سويا ولم يمش مكبا على وجهه لكونه كالانعام بل هم أضل سبيلا وتأمل أجزاء العالم علم ان أفضلها ذوات الارواح وأفضل ذوات الارواح ذوو الارادة والاختيار فى هذا العالم وأفضل ذوي الارادة والاختيار الناظر فى العواقب وهو الانسان فيعلم ان النظر فى العواقب من خاصية الانسان وانه لم يجعل تعالى هذه الخاصية له الا لامر جعله له في العقبي والا كان وجود هذه القوة فيه باطلا فلو لم يكن للانسان عاقبة ينتهي اليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصبا وهما وحزنا ولا يكون بعده حال مغبوطة لكان أخس البهائم أحسن حالا من الانسان فيقتضى ان

تكون هذه الحكم الالهية والبدائع الربانية التى أظهرها الله تعالي فى الانسان عبثا كما نبه الله عليه بقوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) فان أحكام بنية الانسان مع كثرة بدائعها وعجائبها ثم نقضها وهدمها من غير معنى سوى ماتشاركه فيه البهائم من الاكل والشرب والفساد مع مايشوبه من التعب الذى قد أغنى عنه الحيوانات سفه (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا) تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا وما اظهر عند من القي عن مناكبه دثار العماية صدق أمير المؤمنين على عليه السلام فى قوله الدنيا دار ممر لا دار مقر فأعبروها ولا تعمروها وقد خلقتم للابد ولكنكم تنقلون من دار الى دار حتى يستقر بكم القرار. وكثير من الجهال اغتروا بقوم وصفوا بوفور العقل فى أمور الدنيا حيث انكروا امر الآخرة فقالوا لو كان ذلك حقا لم ينكره أمثالهم مع وفور عقولهم وكثرة فهمهم ولم يعلموا ان العقل وان كان جوهرا شريفا فانه لا يتوجه الا حيث وجه ولا غناء له الا فيما اليه صرف فاذا صرف الى أمور الآخرة احكمها واذا صرف الى أمور الدنيا قبلها وعكف عليها وأخل بما سواها فتقصر بصيرته حينئذ عن الامور

الاخروية كما نبـه الله عليه فى غير موضع من كتابه وقد تقدم القول فيـه

﴿فصل﴾

اعلم ان الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو احد الاسباب الموصلة للانسان الى النعيم الابدى وهو انتقال من دار الى دار كما روي انكم خلقتم للابد لكنكم تنقلون من دار الي دار حتى يستقر بكم القرار فهو وان كان فى الظاهر فناء واضمحلالا فهو فى الحقيقة ولادة ثانية قال الشاعر فى ذلك

تمخضت المنون له بيوم أتى ولكل حاملة تمام

فانه جعل للمنون حملا كحمل المرأة وتمخضا كتمخضها وولادة كولادتها تنبيها على انه أحد أسباب الكون . قال بعضهـم الانسان مادام فى دنياه جار مجرى الفرخ فى البيضة فكما ان من كمال الفرخ تفلق البيض عنه وخروجه منه كذلك من شرط كمال الانسان مفارقة هيكله ولولا هذا الموت لم يكمل الانسان فالموت اذا ضرورى فى كمال الانسانيـة ولكون الموت سببا للانتقال من حال اوضع الى حال اشرف وارفع سماه الله تعالى توفيا وامساكا عنده فقال

تعالي (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الي اجل مسمى) ولهذا تقول العرب استأثر الله بفلان ولحق بالله ونحو ذلك من الالفاظ ولاجل ان الموت الحيوانى انتقال من منزل ادنى الى منزل اعلى احبه من وثق بماله عند الله ولم يكره هذا الا احد رجلين احدهما من لا يؤمن بالاخرة وعنده ان لاحياة ولا نعيم الا فى الدنيا كمن وصفهم الله تعالى بقوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزه من العذاب ان يعمر) وقال بعض من هذه طريقته شعرا فى هذا المعنى

خذ من الدنيا بحظ قبل ان تنقل عنها
فهي دار ليس تلقى بعدها أطيب منها

والثانى يؤمن به ولكن يخاف ذنبه فأما من لم يكن كذلك فانه يحبه ويتمناه كما أحبه الصالحون وتمنوه. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال تعالى (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) تنبيها على ان من يكون متحققا

بحسن حاله عند الله لم يكره الموت . فالموت هو باب من أبواب الجنة منه يتوصل اليها ولو لم يكن موت لم تكن الجنة ولذلك من الله تعالى به على الانسان فقال (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا) فقدم الموت على الحياة تنبيها على انه يتوصل به الى الحياة الحقيقية وعده علينا فى نعمه فقال (كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فجعل الموت انعاما كما جعل الحياة انعاما لانه لما كانت الحياة الاخروية نعمة لا وصول اليها الا بالموت فالموت نعمة لان السبب الذى يتوصل به الى النعمة نعمة ولكون الموت ذريعة الى السعادة الكبرى لم يكن الانبياء والحكماء يخافونه حتى قال أمير المؤمنين على ابن ابى طالب عليه السلام والله ما ابالى اقع على الموت أو يقع الموت على . وكانوا يتوقعونه ويرون انهم فى حبس فينتظرون المبشر باطلاقهم . وعلى هذا روى الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . وقيل انه لما مات داود الطائى سمع هاتف يقول اطلق داود من السجن . قال الله تعالى (ولئن متم او قتلتم لاولى الله تحشرون) تنبيها على ان الموت سبيل الحياة المستفادة عند الله تعالى وقال تعالى (ولئن قتلتم فى سبيل الله او متم

لمغفرة من الله ورحمة وخير مما يجمعون) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين . الآية وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون فنبه على ان هذه التغيرات خلق احسن فنقض هذه البنية لاعادتها على وجه اشرف كالنوى المزروع الذى لا يصير نخلا مثمرا الا بعد افساد جثتها وكذلك البر اذا اردنا ان نجعله زيادة فى اجسامنا يحتاج ان يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل فيغير تغييرات كثيرة هى فساد لها فى الظاهر وكذلك البذر اذا القى فى الارض يعده من لا يتصور مآله وحاله فسادا فالنفس تحب البقاء فى هذه الدار اذا كانت قذرة راضية بالاعراض الدنوية رضا الجعل بالحش اوجاهلة بمآلها فى المآل

الباب الثالث والثلاثون

في فضيلة الانسان اذا شرف على الملائكة

قد تقدم ان الناس ضربان ضرب لم يحظ من الانسانية الا بالصورة التخطيطية من انتصاب القامة وعرض الظفر والقوة على الضحك

ولغو من النطق يجري مجرى المكاء والتصدية وهو دون البهائم. وضرب هو الانسان وهو المعني بما خلق لاجله فمن كان كذلك فله حالتان احداهما حالته وهو في الدنيا ولم يقتحم العقبة ويكفك الرقبة بل هو صريع جوعة واسير شبعة تنتنه العرقة وتؤلمه البقة وتقتله الشرقة ولما يقض ما امره فهو مادام في دنياه لا يحكم له بانه افضل من الملائكة على الاطلاق. والحالة الثانية قد اقتحم العقبة وفك الرقبة بعد ما قضى ما امره فصار من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بل قد جعل في مقعد صدق عند مليك مقتدر ذا حياة بلا ممات وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل وقد قامت الملائكة تخدمه كما قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فحينئذ من جعل له هذه المنزلة فهو افضل من كثير من الملائكة أعاننا الله علي بلوغ هذه المنزلة وجعلنا من المترشحين لها برحمته انه على ما يشاء قدير

فهذا آخر ما قصدت من بيان تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين نفعني الله به ومن نظر فيه برحمته انه على ما يشاء قدير والحمد لله وصلواته على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00490445

CA
297.23
R142tA
1905